تاريخ ما بين السطور

و أخيرا آمنوا

رمضان مصطفى سليمان

نعيم بن مسعود: اعتراف في الظلال
حين يولد الإيمان من رحم الخديعة

كان الليل ينسدل على يثرب كعباءة سوداء موشّاة بالنجوم ، والريح تمرّ على نخيلها كأنها تهمس بأسرار لا يسمعها إلا من أرهف قلبه للغيب . الأزقة ساكنة ، والأبواب موصدة ، غير أن في عمق هذا السكون كانت تولد قصة ، لا كغيرها من القصص ، قصة رجلٍ عاش عمره على حافة الخداع ، ثم أفاق فجأة على نورٍ لم يكن يحسب أنه سيعرف طريقه إلى قلبه.

دخل الرجل متخفّيًا ، متلفّعًا بعباءة السفر ، متثاقل الخطوات، كأن الأرض تثقل قدميه بثقل ماضيه.

هو **نعيم بن مسعود؛** الاسم الذي كانت يثرب تعرفه كتاجرٍ ماكر ، ولسانٍ مشبع باللئيم ، وعقلٍ لا يُؤمَن جانبه من المكر. رجلٌ إذا جلس إلى مجلسٍ بثّ فيه الريبة و الشك ، وإذا دخل سوقًا قلب موازينه راسا على عقب ، وإذا فاوض عقدًا خرج هو رابحًا ولو خسر الجميع.

لكن هذه الليلة لم يكن نعيم هو نعيم الأمس.

كان قلبه يضرب صدره ضربًا عنيفًا ، لا خوفًا من سيوف ، بل من حقيقةٍ كبرى تزلزل كيانه :

لقد آمن.

آمن بعد أن أسلم نفسه زمنًا لدنس الشرك ، وبعد أن تمرّغ في وحل الخيانة ، وبعد أن عاش عمره يتنقّل بين حصون اليهود ، وأسواق العرب ، وموائد الخمر ، ووجوه النساء ، كأن حياته كلها كانت تيهًا بلا قبلة.

وقف أمام رسول الله ﷺ ، والسكينة تحفّ المكان ، والضوء الخافت يتسلل من مصباح زيت صغير ، فبدت الظلال طويلة على الجدران كأنها أشباح الماضي تراقبه.

قال بصوتٍ متهدّج، مكسور، لكنه صادق:

يا رسول الله ؛ لقد هداني الله إلى الإسلام ، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله حقًا وصدقًا.

لكني كتمت إسلامي ؛ أخشى أن يطلع عليه منافقو المدينة فيفسدوا عليّ أمري ، ويقطعوا عليّ ما عزمت عليه نصرةً للإسلام والمسلمين .فلا تُحدّث أحدًا بإسلامي ، يا رسول الله.

كان صوته يحمل رجفة خوف ، لكن في عينيه نور قرارٍ لا رجعة فيه.

ابتسم النبي ﷺ، تلك الابتسامة التي تطفئ القلق وتبعث الطمأنينة في القلوب ، ابتسامة من يعرف طبائع النفوس ، ويقرأ ما خلف الكلمات.

لكن **أبا بكر** ، بقلبه النقي وعقله الحذر ، لم يستطع أن يطرد الشك بسهولة.

كيف لا ؟ و ماضي نعيم كلّه كان كتابًا مفتوحًا من الخديعة والمكر.

همس بعض الصحابة:

يا رسول الله، نعيم بن مسعود رجل خدّاع ، نديم يهود ، صاحب خمر ، تبع نساء ؛ ما نظنه جاءك إلا عن رأيٍ أُملِي عليه من يهود بني قريظة.

لكن النبي ﷺ لم يزد على أن تبسّم، ثم قال لأبي بكر بصوت هادئ:

اكتم ما سمعتَ ، وانتظر ؛ فلعلّ الله أن يُقِرّ به أعين المسلمين.

الغوص في عقل نعيم

خرج نعيم من عند النبي ﷺ ، لكن داخله لم يخرج كما دخل .كان عقله يعجّ بالأصوات:

صوت ماضيه ، و صوت ضميره ، و صوت الإيمان الوليد في قلبه.

قال في نفسه :

أيُّ رجلٍ كنتُ ؟ أكنتُ ذئبًا في جلد إنسان ؟ أكنتُ تاجرًا أم لصًا أنيقًا ؟ أكنتُ صديقًا لليهود أم أداةً في أيديهم ؟ كم بعتُ من الضمائر ؟ كم اشتريتُ من الذمم ؟ كم مرّة ضحكتُ وأنا أطعن غيري في ظهره ؟ .

ثم سكت لحظة ، ودمعة حارقة انحدرت على خده.

و لكن ؛ هل يُغلق الله بابًا فتحه ؟ هل يردّ الله قلبًا قصده ؟ هل يرفض الله عبدًا جاءه منكسرًا ؟

شعر لأول مرة أن داخله ليس فراغًا ، بل نور ؛ نورٌ ضعيف، لكنه حقيقي. نورٌ لا يشبه ضوء المصابيح، بل ضوء الروح.

+

ماضيه مع اليهود

كان نعيم معروفًا في أسواق يثرب . تاجرًا يجيد المساومة ، خبيرًا بأساليب اليهود في المماحكة ، ماكرًا في المداراة ، بارعًا في غشّ المشترين والبائعين.

وكان **حيي بن أخطب** يقول له يومًا ساخرًا:

لولا أنك عربي من أشجع ، ولا تعرف شيئًا في ديننا ، لقلتُ إن الذي يجري في عروقك دم يهودي لا عربي . ما غلبك أحد في التجارة قط . أ تكون أمك يهودية يا نعيم ولا تدري ؟

فيضحك نعيم، ويقول:

ومنذ متى يتزوج بنو أشجع من يهوديات يا ابن أخطب ؟

فيقول حيي ضاحكًا بخبث :

وما عيب اليهوديات يا نعيم ؟ ما أراك تتردد على حصوننا إلا من أجل دلالهنّ وجمالهنّ . لك في كل حصن صاحبة. ترى من صاحبتك في حصون بني النضير؟

فيرد نعيم ساخرًا:

ويحك يا حيي ؛ وهل سألتك عن نزهاتك الخفية مع شارد بنت كعب بن أسد في بساتين أبيها ؟ أم عن لياليك الطويلة في ظلّ نخيل قريظة ؟

فيقاطع حيي سريعًا:

كفّ عن هذا يا نعيم، حتى لا يغضب كعب بن أسد فيفسد أمر اليهود في المدينة. نحن نجتهد لإخراج محمد وصحبه من أرضنا.

فيضحك نعيم ضحكة ساخرة:

أرضكم ؟ منذ متى كانت يثرب أرضكم ؟إنما غلبتم عليها الأوس والخزرج بالخديعة والديون وفوائدها الربوية .

مضى عامان على هجرة محمد إلى يثرب ، وما أسمع منكم إلا هذه النغمة:

"نُدبّر لإخراج محمد وصحبه." وما أحسبكم بالغين من هذا شيئًا.

+

لكن الليلة تغيّر كل شيء . نعيم لم يعد ذلك الرجل . صار ينظر إلى الماضي كأنه جسدٌ آخر ، عاش فيه زمنًا، ثم خرج منه. صار يشعر أن كل حيلة تعلّمها يمكن أن تتحوّل إلى وسيلة لنصرة الحق .وأن كل دهاء امتلكه يمكن أن يُسخَّر في خدمة الإيمان.

قال في نفسه:

يا رب؛ إن كنتُ خدعتُ عبادك ، فاجعل دهائي اليوم في نصرة دينك. وإن كنتُ أفسدتُ القلوب ، فاجعل لساني اليوم مرممًا لها . وإن كنتُ سرتُ في الظلام، فاجعل خطواتي اليوم في النور.

كان يتحدّث مع نفسه كما لو كان أمام مرآة روحه:

يا نعيم ؛ أنت تعرف طرق اليهود ، و تعرف نفوس العرب ، و تعرف مواطن الضعف ، وتعرف كيف تُدار الفتن . فهل تكون شيطانًا كما كنت ، أم تكون سيفًا لله كما ينبغي أن تكون ؟

ثم يسمع صوتًا داخليًا آخر:

بل كن عبدًا لله أولًا ؛ فإن صلحت العبودية ، صلح كل شيء بعدها.

+

قصة نعيم ليست قصة رجل فقط ، بل قصة الإنسان حين يتغيّر . حين يكتشف أن الهوية ليست نسبًا ، ولا قبيلة ، ولا ماضيًا ، بل اختيارًا. حين يفهم أن الإنسان ليس ما كان ، بل ما قرّر أن يكون.

الإيمان هنا ليس طقسًا ، ولا شعارًا ، ولا كلمة تُقال ، بل **انقلاب وجودي**: انقلاب في الرؤية ، و في القيم ، وفي معنى الحياة.

نعيم لم يغيّر دينه فقط ، بل غيّر تعريفه لنفسه.

+

وفي تلك الليلة ، خرج نعيم من الظلال إلى النور ، من الخديعة إلى الصدق ، من التجارة بالناس إلى العبودية لله ، من المكر إلى الحكمة ، من التيه إلى الطريق.

لم يعلم أهل يثرب بإسلامه ، لكن السماء علمت . ولم ترَ الناس تحوّله ، لكن الله رآه . وكان ذلك كافيًا. لأن بعض التحوّلات لا تحتاج شهودًا ،ولا تحتاج ضجيجًا ، ولا تحتاج إعلانًا ؛ يكفيها أن تُكتب في سجلّ السماء.

بئر رومة

حين تآمرت الظلال على نور المدينة

في يثرب ، حيث تتشابك الأزقة الضيقة كأصابع مترددة تبحث عن يقين ، وحيث تختلط رائحة التمر بندى الفجر وصوت الخطى الأولى للمصلين ، كانت المدينة تغلي تحت سطحها بهواجس مكتومة ، وتتحرك فيها قوى لا تُرى ، تتصارع في الخفاء بين إيمان يتشكل ، وكيدٍ ينسج خيوطه في العتمة. لم تكن يثرب يومئذ مجرد مدينة تستقبل نبيًا مهاجرًا ، بل كانت مسرحًا تاريخيًا تتواجه فيه الأرواح قبل الأجساد ، والعقول قبل السيوف.

وقف عمر بن الخطاب في سوق اليهود ، شامخ القامة ، مشدود الأعصاب ، كأن في صدره بركانًا يريد أن ينفجر . كانت عيناه تجوسان في الوجوه المتجهمة ، وفي حركات التجار المتحفظة ، وفي ابتسامات خفية تخفي أكثر مما تُظهر. شعر أن الهواء نفسه مثقل بالكيد ، وأن الكلمات التي تُقال للمارّة العرب ليست بريئة كما تبدو.

قال عمر بصوت جهوري اخترق ضجيج السوق :

يا معشر يهود ، ما هذا الذي تقولونه لكل من يدخل سوقكم من العرب ؟

تبادل القوم نظرات خاطفة سريعة ، ثم تقدم ابن صوريا ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، تخفي احتقارًا متراكمًا عبر قرون من الاستعلاء الديني والعرقي. قال متهكمًا زاجرًا :

وما شأنك بما نقول يا رجل ؟ نسمع إنك كنت سليط اللسان في مكة ، فلا تحسبن أنك تقول وتفعل هنا في يثرب مثلما كنت تقول وتفعل في مكة . ألا رده صاحبك عن سبّنا يا محمد ؟

كان رسول الله ﷺ يقف غير بعيد ، هادئ السحنة ، ثابت النظرة ، كأن الطمأنينة تسكن ملامحه الوضاءة . لم يرد مباشرة ، بل ترك لعمر أن يكون لسان الموقف.

قال عمر ، وقد استجمع صوته ليجعله أكثر رزانة وحزمًا :

رسول الله يقول لكم : احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنه نبي مرسل.

قهقه ابن صوريا قهقهة عالية قصيرة ، فيها من السخرية أكثر مما فيها من الضحك ، وقال :

وما علمنا بهذا الذي تزعمه يا محمد ؟

قال عمر بحزم :

يقول لكم رسول الله إنكم لتجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.

اقترب ابن صوريا خطوة ، وحدق في وجه النبي تحديق من يريد أن يختبر ثبات الجبل ، ثم قال :

يا محمد، كأنك ترى أننا مثل قريش قومك ؟

قال عمر بلهجة صارمة:

رسول الله يقول لكم: أخزاهم الله بكفرهم في بدر.

+

اهتزت الوجوه ، وتبدلت الألوان ، وقال ابن صوريا وقد اشتعل الغضب في عينيه:

لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. أنا والله لئن حاربناك لتعلمن إنا نحن الناس.

ثم التفت إلى نعيم وقال بنبرة خبيثة :

ما قولك يا نعيم ؟ ألا ترى أن أبناء عمومتنا قد أدخلوا الخوف بما قالوا إلى قلب محمد وأصحابه ؟

قال نعيم ، وقد بدا عليه التردد :

كأنكم عازمون على حربه ؟

ضحك حيي بن أخطب ضحكة قصيرة ماكرة جافة ، وقال :

ولمَ لا نتحرش به ؟ إذا رفع السلاح في وجهنا ، ففي ذلك نهاية المسلمين في يثرب.

فإن لم يرفع ؟

نرفعه نحن.

ساد صمت ثقيل ، كأن الكلمات سقطت في بئر بلا قاع. ثم قال نعيم متوجسًا:

كأنكم تدبرون لحرب في المدينة ، لا يخرج محمد وأصحابه منها إلا بهذا ؛ والعهد بينكم وبينه ؟

رمقه حيي بنظرة تعالي و ازدراء :

ماذا جرى لذكائك يا نعيم ؟ منذ متى تقيم يهود للعهود قدرًا أو قيمة ؟ إنما قبلنا منه العهد ونحن على يقين أن الفرقة ستدب حتمًا بين الأوس والخزرج كما اعتدنا منهم ، فيتشتت أمر المسلمين ويتقاتلون وتذهب ريحهم ، ونحن ننظر. ولكن حدث غير ما أملنا.

قال نعيم بقلق صادق :

وهذا ما يثير الدهشة يا حيي ، جمعهم محمد وآخى بين المهاجرين والأنصار ، فصاروا كالنسيج المتلاحم ، وهذا من بعض سحر محمد.

أتؤمن بالسحر يا نعيم ؟

ضحك نعيم ، وفي ضحكته مرارة :

ويحك يا حيي ، كأني لا أعلم بأنكم تمارسون أسوأ أنواع السحر في حصونكم! أتكتم عنا ؟

قال حيي وقد انخفض صوته و كأنه يهمس :

عجبًا ، ومنذ متى يسألني يهود يثرب سؤالًا كهذا ؟ ما أحسب رجلًا من العرب يعطيكم الود صرفًا كما أعطيكم . فاعلم يا أبا سلمة أننا نعد لمحمد سحرًا يتلف صحته ، وسنلقيه غدًا في بئر رومة . سترى كيف تنحل عزيمته ويفقد شهيته إلى الطعام ، ويباعد زوجته ، ثم يذوي يومًا بعد يوم حتى يموت.

+

في تلك الليلة ، لم يغمض لعمر جفن. كان يسير في طرقات المدينة ، يستمع إلى أنفاسها ، كأنها جسد حي يتنفس في الظلام. كان يشعر بثقل المؤامرة قبل أن يسمعها ، وكأن قلبه استشعر الخطر قبل أن تتشكل كلماته في أفواه المتآمرين. جلس في ركن من المسجد ، وأسند رأسه إلى عمود من جذوع النخل ، وأخذ يحدث نفسه :

يا رب ، ما أعظم هذه الأمانة ! كيف نقف بين نور الوحي وظلمة المكر ؟ كيف نحمي هذا الدين الوليد من أنياب الحقد الدفين ؟ إنهم لا يحاربوننا بالسيوف وحدها ، بل بالدهاء و المكر ، بالسموم الخفية ، وبالنفوس التي تكره أن ترى النور ينتشر.

كانت صور مكة تطل من ذاكرته ، يوم كان يعذب من أجل كلمة ، ويهان من أجل إيمان ، ثم تلاشت تلك الصور لتحل محلها صورة المدينة، وهي تفتح ذراعيها للإسلام ، فكيف يُسمح للكيد أن يطفئ هذا النور ؟

+

في بيت النبي ﷺ ، كان السكون يلف المكان ، غير أن في أعماق ذلك السكون حراكًا روحيًا عميقًا . جلس النبي في محرابه ، يناجي ربه ، وقد استشعر في قلبه رجفة خفيفة ، كأن الريح تحمل إليها همسًا غامضًا. لم يكن خوفًا ، بل إحساسًا بالمسؤولية ، بثقل الرسالة ، وبأن طريق النور محفوف دائمًا بالأشواك.

وفي حصون اليهود ، كانت نار الحقد تتقد. جلس حيي وابن صوريا ونعيم حول مصباح زيت صغير ، تتراقص ظلالهم على الجدران الحجرية . بدت وجوههم في ذلك الضوء كأقنعة مسرحية : قسوة، خبث، وتردد.

قال نعيم بصوت منخفض :

أخشى أن ينقلب السحر على الساحر.

ابتسم حيي ابتسامة باردة :

بل سينقلب محمد إلى ظلّ رجل ، ثم إلى ذكرى.

لكن في أعماق نعيم ، كان صراع خفي يدور. شيء ما في محمد كان يهزه من الداخل ، شيء لم يستطع كرهه أو إنكاره . كان قد رأى بعينيه كيف غيّر هذا الرجل قلوبًا كانت أشد قسوة من الصخر ، فكيف لا يتردد ؟

أيمكن أن يكون هذا حقًا ؟ سأل نفسه .أيمكن أن يكون ما نحاربه هو نور الله ؟

لكن الخوف من قومه ، ومن فقدان المكانة ، ومن التقاليد الصلبة ، كان أقوى من صوت الضمير.

+

طلع الصباح ، وتوجه الناس إلى أعمالهم ، والمدينة لا تدري أن بئر الرومة تخفي في أعماقها سرًا مظلمًا. كانت الشمس تشرق ببطء ، كأنها تتردد قبل أن تكشف عن يوم جديد من الصراع بين الحق والباطل.

اقترب عمر من النبي ﷺ وهمس بما سمعه من تهديد وتآمر. أنصت النبي بعمق، ثم قال بهدوء :

حسبنا الله ونعم الوكيل.

في تلك اللحظة ، شعر عمر أن السكينة تنساب إلى قلبه كما ينساب الماء العذب في أرض عطشى . أدرك أن هذا الدين لا يُحفظ بالسيوف وحدها ، بل بالتوكل ، وبالإيمان الراسخ ، وبالثقة المطلقة في وعد الله.

+

وفي حصون اليهود، كان حيي يعد عدته، و يراجع خطته التي رسمها، ويظن أنه أمسك بخيوط اللعبة . لكنه لم يكن يعلم أن التاريخ لا يُكتب بالمكر ، بل بالصبر و التأني ، ولا يُصاغ بالخديعة، بل بالصدق.

+

مرت الأيام ، وكُشف الكيد ، وبقي النور ، وتهاوت المؤامرات كما تتهاوى أوراق الخريف أمام ريح عاتية. أدرك أهل يثرب أن معركتهم ليست مع بشر فحسب ، بل مع منظومة من الظلام تحاول أن تطفئ مصباح الحق.

أما عمر، فكان كلما تذكر تلك اللحظات، شعر أن الله اصطفاه ليكون شاهدًا على ولادة أمة ، وعلى صراع خالد بين الهداية والضلال. وكان يقول في نفسه:

ما أعجب أمر هذا الدين ! كلما اشتدت حوله المؤامرات ، ازداد قوة ، وكلما تكاثر أعداؤه ، ازداد أنصاره.

وهكذا بقيت بئر الرومة شاهدًا صامتًا على محاولة يائسة لإغتيال النور ، وبقيت المدينة منارة، تروي للأجيال أن الحق ، مهما حُورب ، لا يموت ، وأن التاريخ ، مهما كُتب بمداد المؤامرة ، لا بد أن يُمحى بنور الحقيقة.

حين يُهزم السحر وتنتصر الكلمة

ملحمة الوعي في زمن التأسيس

في تلك الأيام التي كانت المدينة المنوّرة فيها تتشكّل كجسدٍ جديد يتعلّم النهوض بعد مخاضٍ عسير ، كانت الأرواح أشدّ توتراً من أوتار قوسٍ مشدودة ، وكانت العقول تترقّب المصير كما يترقّب الظمآن قطرة المطر. كانت المدينة تغلي: إيمانٌ يولد ، وحقدٌ يتربّص ، وسحرٌ يُنسج في الظلال ، وكلمةٌ تُشحذ لتكون سيفاً.

لم يكن الليل في يثرب ليلةً عادية ؛ كان فضاءً مفعماً بالهمس ، تتداخل فيه نوايا البشر كما تتشابك جذور الأشجار تحت التراب.

وفي عمق هذا الليل ، كانت المؤامرة تنمو كعشبٍ سامّ ، تُسقى بماء الحقد ، وتُسمّد بخيبة الهزيمة. لقد أدرك يهود يثرب ، منذ انكسار قريش في بدر ، أن ميزان القوة قد انقلب ، وأن المدينة لم تعد مجرد واحة آمنة ، بل صارت قلب الدولة الإسلامية الناشئة ، وموئل القرار ، ومركز إشعاعٍ روحي وسياسي لا يمكن تجاهله.

+

بلغ رسول الله ﷺ أن جماعة من اليهود قد ألقوا بشيءٍ ملفوف في قطعة من القماش في بئر رومة ، شيءٍ أريد له أن يكون مدخلاً للسحر ، وخيطاً خفياً يُربك صفو الروح الطاهرة. كان الخبر ثقيل الظل ، لكنه لم يزعزع الطمأنينة العميقة التي تسكن قلب النبي ؛ فقد كان يعلم أن النور لا تهزمه الظلمات، وأن من احتمى بالله لا يضره كيد كائد.

أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينزل إلى البئر ، فهبط إليها بثبات من يعرف أن خطواته محروسة. كان الماء بارداً ، لكن عزيمته كانت أشدّ حرارة. أخرج القماش ، وفتحه على مرأى من المسلمين ، فانكشفت المؤامرة كما ينكشف وجه الليل عند الفجر.

ساد صمتٌ كثيف ، صمتٌ يشبه لحظة انحباس الأنفاس قبل انطلاق العاصفة. أدرك المسلمون أن عهد الموادعة قد صار مهدداً ، وأن الأيدي التي صافحتهم بالأمس قد دسّت في اليوم سمّ الخيانة. ومع ذلك، ظلّ رسول الله ﷺ وفياً لعهدٍ كُتب في العام الأول للهجرة ، عهداً قام على التعايش ، والعدل ، واحترام الكلمة.

لكن النفوس المريضة لا تصبر على ضوء الحق ، ولا تهدأ في حضرة العدل. لقد كان يهود يثرب يعلمون أن المعركة لم تعد معركة سيوف فحسب ، بل صارت معركة عقول ، وحربَ رواياتٍ، وصراعَ كلمات.

+

في مجلسٍ خافت الإضاءة ، حيث تتراقص الظلال على الجدران كأشباحٍ قلقة ، جلس ابن صوريا ، أحد كبار أحبارهم ، وقد ارتسمت على ملامحه خطوط دهاءٍ قديم. كانت عيناه تضيقان وتنبسطان كأنهما تدرسان الوجوه ، لا لتفهمها ، بل لتبحث عن مواطن الضعف فيها.

قال بصوتٍ منخفض ، لكنه نافذ:

" لقد انتصر محمد وأصحابه في بدر ، فانكسرت هيبة قريش ، وصارت المدينة مركز الدولة الجديدة. إن تركنا هذا الانتصار يترسّخ في عقول العرب ، فلن تقوم لنا قائمة. علينا أن نقلّل من شأن بدر ، أن نجعلها معركة عابرة ، أن نبكي قتلى قريش حتى يتحوّل البكاء إلى سلاح " .

كانت الفكرة تلمع في ذهنه كخنجرٍ مصقول. تابع:

" لينطلق شعراؤنا ، وليتحرّك شعراء العرب من أصدقائنا ، ليملأوا الجزيرة شعراً يهوّن من النصر ويعظّم الخسارة. فالشعر اليوم أبلغ من الرماح ، وأمضى من السيوف "

في تلك اللحظة، أدرك الحاضرون أنهم أمام حربٍ نفسية، معركة تُدار في الخيال الجمعي، حيث تُصنع الصور، وتُزرع الشكوك، وتُعاد كتابة الواقع.

+

كان كعب بن الأشرف أكثرهم استعداداً لهذه المهمة . شاعرٌ موهوب ، لكن روحه كانت منكسرة ، معلّقة بين أصلٍ عربيٍ تنكّر له ، وهويةٍ يهوديةٍ لم تمنحه السكينة . ملأت قريش كفّه ذهباً ، فصار الذهب حبلاً يقيّد صوته ، ويوجّهه حيث شاء المموّلون.

راح ينفث شعره في كل نادٍ ومجلس:

صحنت رحى بدر لمهلك أهله و لمثل بدر تستهل و تدمع

قتلت سران الناس حول حياضهم لا تبعدوا أن الملوك تصرع

كانت أبياته تُلقى كحجارة في ماءٍ راكد ، فتثير دوامات من الغضب والحزن ، وتوقظ في النفوس نار الثأر.

ولم تكن هند بنت عتبة أقل حماسة ؛ فقد كانت تحمل في صدرها ثكلاً مريراً ، فقدت في بدر أباها وأخاها وعمّها ، فصارت قصائد كعب زادها اليومي لإشعال ثائرة زوجها أبي سفيان ، وتحريض قريش على الانتقام.

+

تنبه رسول الله ﷺ إلى هذه الحملة الدعائية المسعورة . كان يعلم أن الشعر في تلك الأيام أشد وقعاً من السيوف ، وأن الهزيمة النفسية قد تسبق الهزيمة العسكرية . التفت إلى عمر بن الخطاب وقال :

"ق ل لحسان بن ثابت أن ينهض ، فقد آن للكلمة أن تدافع عن الحق " .

وصل الأمر إلى حسان ، الشاعر الأنصاري ، فاضطرم قلبه كما تضطرب أمواج البحر قبل العاصفة. لم يكن الشعر عنده زينة لفظية ، بل كان رسالة ، وسلاحاً ، وعبادة. كان يدرك أن كل بيتٍ سيقوله سيكون سهماً موجهاً إلى قلب الباطل.

وقبل أن يتهيأ للرد ، أسرع إليه نعيم بن مسعود ، صديق اليهود ، وقال بنبرةٍ فيها مزيج من العتاب والمكر :

" يا حسان ، إنك من يثرب ، وقد كنت صديقاً لليهود ، فكيف تسب صاحبك كعب بن الأشرف ؟ كان نديم خمرك وصاحب لهوك. "

نظر حسان إليه بعينين تقدحان شرراً ، وقال :

"وما أنت وذاك يا نعيم ؟ "

قال نعيم متصنّعاً النصح :

" أردت أن أردك عمّا يؤذيك . ألا تصلك عطايا الناس بسبب شعرك القديم ؟ ماذا يبقى لك إذا قطعت ما في عنقك من فضل ؟ "

هنا ، انفتح في داخل حسان بابٌ عميق من التأمل. رأى نفسه بين طريقين: طريق الدنيا بزخرفها ، وطريق الآخرة بنورها. شعر أن الكلمات ليست مجرد أصوات ، بل مواقف ، وأن الشاعر مسؤول عمّا يزرعه في الأرواح.

قال بثبات :

" تبقى لي الجنة يا نعيم ."

ضحك نعيم ساخراً :

" وهل تظن حقاً أن هناك جنة ؟ " .

رد حسان ، وصوته يخرج من أعماق يقينٍ لا يتزعزع :

" هناك جنة ونار ، جنة أدخلها أنا وأصحابي ، ونار تدخلها أنت وأصحابك من اليهود والمنافقين والمشركين. " .

ارتسم الاستهزاء على وجه نعيم ، لكنه أحس في داخله بوخزٍ خفي ، كأن الكلمات أصابت موضعاً حساساً في روحه.

+

حين خلا حسان بنفسه ، جلس في زاوية بيته ، وأرخى رأسه بين يديه. كان يسمع في داخله صخب الأفكار :

هل أستطيع أن أواجه هذا السيل من الحقد ؟ هل تكفي الكلمات لردّ هذا الطوفان ؟ .

ثم تذكّر وجه رسول الله ﷺ ، ذلك الوجه الذي يشعّ طمأنينة ، فتبدّد الخوف ، وحلّ مكانه يقين عميق. قال في نفسه :

إن الكلمة التي تُقال لله لا تموت ، وإن الشعر إذا خرج من قلبٍ مؤمن صار نوراً يهدي، لا ناراً تحرق.

نهض، كأنما استعاد قامته الروحية ، وراح يصوغ أبياته كما يُصاغ السيف في النار ، بيتاً بعد بيت ، حتى صار شعره نهراً جارياً من المعاني ، يفيض دفاعاً عن الحق ، ويكشف زيف الباطل.

+

في الأسواق ، وفي المجالس ، وفي طرق القوافل ، تناقلت العرب شعر كعب وشعر حسان . كان الأول ينفث سمّاً ، والثاني يسكب دواء. كان الأول يستدعي الثأر ، والثاني يستنهض القيم . وفي هذا الصراع الخفي ، كانت العقول تُعاد صياغتها، والقلوب تُختبر. لم يكن

الصراع بين رجلين ، بل بين رؤيتين للعالم: رؤية ترى الإنسان أسير ماضيه وحقده ، وأخرى تراه قادراً على التجاوز والنهوض.

+

في عمق هذه الأحداث، كانت تتجلّى فلسفة عميقة : أن السحر ، مهما بدا خفياً وقادراً ، يظلّ هشّاً أمام نور الوعي ، وأن الكلمة ، حين تتصل بالقيم ، تصير أقوى من كل المؤامرات . لقد فشل ما أعدّه المجرمون من سحر ، لأن الروح التي تستمد قوتها من الإيمان لا تُستباح.

وكان رسول الله ﷺ يدرك أن بناء الدولة لا يقوم على القوة وحدها ، بل على ترسيخ المعنى ، وعلى صناعة إنسان جديد ، يرى في العدل جوهر الوجود ، وفي الرحمة طريق النجاة.

+

في أزقة المدينة ، كان الناس يتداولون الأخبار . بعضهم يهمس خوفاً ، وبعضهم يجاهر يقيناً . النساء في البيوت كنّ يتناقلن قصائد كعب وحسان ، فيبكين حيناً ، ويبتسمن حيناً . الأطفال كانوا يسمعون أسماء بدر ، فيحفظونها كما يحفظون أسماء النجوم.

كان المجتمع كله يعيش حالة مخاض : مخاض وعي ، ومخاض هوية . لقد صار السؤال الكبير: أيّ رواية سنختار ؟ رواية الحقد أم رواية الأمل ؟

وفي نهاية المطاف، لم تنتصر السيوف وحدها ، بل انتصرت الكلمة الصادقة. خبت نار الدعاية شيئاً فشيئاً ، وبقي نور الحقيقة مشتعلاً. أدرك الناس أن الشعر يمكن أن يكون جسراً إلى الجنة ، أو درباً إلى النار ، وأن مسؤولية الكلمة أعظم من مسؤولية السلاح.

أما حسان، فكان يمشي في طرقات المدينة وقد خفّ حمله ، كأنه ألقى عن كاهله عبئاً ثقيلاً . كان يشعر أن كل بيتٍ قاله قد قرّبه خطوة من الله ، وأن الدفاع عن الحق هو أسمى أشكال العبادة.

وفي قلب النبي ﷺ ، كانت الطمأنينة تتسع. لقد رأى كيف تُهزم المؤامرة حين تُواجه بالوعي ، وكيف ينهار السحر حين يُقابل بالإيمان ، وكيف تنتصر الدولة حين تُبنى على أساس من القيم.

وهكذا ، في تلك الأيام المفصلية ، لم تُكتب صفحات التاريخ بالحبر وحده ، بل بالدمع ، وبالدم ، وبالكلمة ، وبالنور. وكانت المدينة شاهدة على ميلاد زمنٍ جديد ، زمنٍ يتعلّم فيه الإنسان أن أعظم انتصاراته ليست في ساحة المعركة، بل في أعماق روحه.

على تخوم الشائعة

ملحمة الكلمة واليقين في المدينة بعد بدر

كانت الشهور الثلاثة التي أعقبت وقعة بدر زمنًا استثنائيًا في تاريخ المدينة ، لا يُقاس بثقله العسكري وحده، بل بما أحدثه من زلازل نفسية واجتماعية وفكرية في نفوس الناس . لم تكن بدر مجرد ساحة قتال ، بل كانت بوابة انفتحت منها أسئلة الوجود والحق والباطل ، وبها انقسمت القلوب بين يقين متجذر في السماء ، وحقد متأجج في صدور الأرض.

في تلك الأيام، تحوّلت المدينة إلى ساحة صراع غير مرئي ، حرب خفية لا تقل شراسة عن حد السيوف ، حرب الكلمة ، و الشائعة ، والهمس المسموم . كان الشعر سلاح العرب الأثير ، فهبّ شعراء الطرفين يتبارزون بالقصائد ، يرفعون قومًا ، ويضعون آخرين ، يؤججون الأحقاد ، ويصبّون الزيت على نار الثأر . حتى هند بنت عتبة ، التي لم تكن تحسن نظم الشعر ، اشترت من أمية بن أبي الصلت أبياتًا ، ونسبتها إلى نفسها ، فلما ماطلته في حقه، فضحها في المجالس والأسواق ، فصار ذلك فضيحة تلوكها الألسنة ، وعارًا يطوف بأندية قريش.

غير أن كل ذلك الشعر ، بكل ما فيه من فصاحة وجزالة ، كان يسقط صريعًا تحت وقع آيات الله البينات ، تلك التي كان المسلمون يرددونها في صلواتهم ، وفي أسحارهم ، فتتجدد بها أرواحهم، وتستعيد بها قلوبهم توازنها ، وتمحو من صدورهم سُعار شعر المشركين .

كان القرآن ، في تلك اللحظة التاريخية ، ليس مجرد نص مقدس ، بل قوة نفسية وروحية تعيد تشكيل الوعي الجمعي ، وتربط الأرض بالسماء بخيط لا ينقطع.

لكن أعداء الدعوة ، وقد ذاقوا مرارة الهزيمة ، لم يركنوا إلى الصمت. كان في صدورهم غليان لا يهدأ ، وحقد يتربص بالفرصة. وهنا بزغت فكرة جديدة ، أخطر من الشعر ، وأشد وقعًا من السيف: الشائعة.

اجتمع حيي بن أخطب ، العقل المدبر ليهود بني النضير ، مع زعماء بني قينقاع ، وراح يرسم لهم خطة الحرب القادمة ، وقد بدا على وجهه مزيج من الدهاء والخبث ، كأن الشيطان يملي عليه الكلمات إملاءً.

قال بصوت خافت لكنه نافذ :

نحاربهم بالشائعات. إنها أمضى عليهم من الشعر ، وأقسى من السيوف. نحن نجيد هذا اللون من الحرب ، أما هم فدينهم يمنعهم عنها. الكلمة عندهم أمانة ، وعندنا سلاح.

سرت في المجلس همهمة موافقة ، وتبادلت العيون نظرات تآمر. كان الجميع يدرك أن الشائعة ، حين تُطلق في مجتمع صغير مترابط ، قادرة على تمزيق النسيج الاجتماعي ، وزرع الشك في أعمق مواطن اليقين.

وهكذا وُلدت المؤامرة.

وكان رأس الحربة في هذا الميدان القذر : نعيم بن مسعود ، وعبد الله بن أُبيّ بن سلول. كلاهما يملك القدرة على النفاذ إلى القلوب ، وكلاهما يعرف دهاليز النفوس البشرية ، ومداخلها الخفية.

+

خرج نعيم ذات صباح ، وقلبه يعجّ بتناقضات لا تهدأ. كان في داخله صراع مرير بين بقايا جاهلية تأبى الانطفاء ، ونور إيمان بدأ يتسلل إلى أعماقه ، لكنه لم يرسخ بعد. سار بخطوات مترددة نحو دار ابن عمه سُبيع ، وقد أعدّ في ذهنه مشهدًا كاملًا للحوار ، كما يُعدّ الممثل دوره قبل الصعود إلى المسرح.

ما إن رآه سبيع حتى قال مستنكرًا :

ويحك يا نعيم ! أين كنت ؟ لقد كمنت في تجارة لك ، ولم تنزل يثرب إلا منذ أيام ثلاثة ، ثم هرعت من فورك إلى حصون اليهود !

ابتسم نعيم ابتسامة مشوبة بالمكر ، و قال :

وما عيب ذلك ؟ أنت تعرف أنهم أصحابي كما كانوا أصحابك . ثم بعد أن منّ الله عليّ بالإسلام ؛ ويحك يا سبيع ، أسلم تسلم.

نظر إليه سبيع طويلًا ، وكأنما يبحث في وجهه عن الصدق ، فلم يجد إلا اضطرابًا مريبًا.

قال نعيم وهو يقترب :

وأسير بين يدي محمد ، فأقول له في ذلة : أجل يا رسول الله ؟ ما شئت يا رسول الله . لا والله ، ما يكون هذا أبدًا؛ فلا تراني وجهك بعد اليوم يا نعيم ، على ما كان بقلبي لك من إعزاز.

ثم صمت لحظة ، وأردف بصوت خافت :

لن أريك وجهي يا سبيع ، ولكن ليس قبل أن أنثر بصرك إلى ما يفعل بكم محمد. فأنت بعدُ ابن عمي وصديقي.

هنا انتبه سبيع ، وقال بحدة :

ويحك ! وماذا يفعل بنا رسول الله إلا الخير كله ؟

قال نعيم ، وقد بدأ ينفذ إلى قلب صاحبه :

أَمِنَ الخير ألا يعدل في القسمة ؟ ألم تر كيف قسم مغانم بدر ؟ قسمها بالعدل ، تقول ؟ أي عدل في أن يعطي عثمان بن عفان نصيبًا يساوي نصيبك ؟ لم يشترك عثمان في بدر ، وشاركت أنت ، ومع ذلك لم تنل مثلما نال !

اضطرب وجه سبيع ، لكنه حاول أن يتمسك بالحقيقة :

عثمان كان يمرض زوجته بأمر رسول الله، وأعاده ونحن على بعد ستة فراسخ من المدينة.

قهقه نعيم قهقهة ساخرة :

هكذا يقولون لك ! أعطاه نصيب المحارب ولم يحارب ! و اللات ، لو كنت أنت الذي بقيت تمرض زوجتك ، لما أعطاك محمد من الغنائم شيئًا . إنما خصّ عثمان لأنه زوج رقية ابنته.

كانت الكلمات تتسلل كسمّ بطي ء إلى عقل سبيع ، تحفر فيه شقوق الشك. لم يكن سبيع منافقًا ، لكنه كان بشرًا ، والبشر ، مهما بلغ إيمانهم ، يضعفون حين تُلامس الشبهة مواضع الحساسية في نفوسهم.

خرج نعيم ، وقد ترك خلفه بذرة مسمومة ، سرعان ما أخذت تنبت في صدور ضعاف النفوس . وتناقلت الألسنة الشائعة في الأسواق ، وفي طرقات المدينة ، وفي ظلال النخيل ، حتى بلغت حصون اليهود ، فتهللت وجوههم ، وتبادلوا النظرات المنتشية.

كانوا يرون في تلك الهمسات نصرًا يعوض هزيمة بدر.

+

غير أن المدينة لم تكن أرضًا رخوة كما ظنوا . كان فيها رجال صقلهم القرآن ، وربتهم المحنة ، وعلّمهم النبي ﷺ كيف يُنصتون لصوت الحق وسط ضجيج الباطل.

تصدى أصحاب رسول الله للشائعة ، وسار أبو بكر وعمر بين الناس ، بلين وحكمة ، يوضحان الصورة، ويفتحان مغاليق العقول.

كان أبو بكر يقف في الأسواق ، بصوته الهادئ الواثق :

يا معشر المسلمين ، لم يكن عثمان وحده الذي خصه رسول الله بنصيب المحارب ولم يحارب . كانوا ستة نفر ، وليس فيهم قريب من رسول الله غير عثمان. إنما أعطاهم لأنهم خرجوا بأمره ثم ردّهم بأمره.

ويتابع عمر ، بصوته الجهوري الصادق :

والله ما كان في قسمة رسول الله إلا العدل ، ومن شك فليسأل ، ومن ارتاب فليتحقق.

شيئًا فشيئًا ، انقشعت سحب الشك ، وتبدد دخان الشائعة ، وانكسر ذلك السهم المسموم في يد حيي بن أخطب . لكنه لم ييأس . فالشيطان الذي دفعه من قبل إلى الكفر ، كان يعد له شعلة أخرى من نار جهنم.

اجتمع حيي بأصحابه من يهود بني النضير وبني قينقاع ، وقال وفي عينيه بريق خبث:

إذا كانت شائعة نعيم قد فشلت بين الرجال ، فلن تفشل حيلة صاحباتنا الخزرجيات مع النساء. قلوب النساء أسرع تأثرًا ، وكلام المجالس أفتك من السيوف.

ساد صمت ثقيل ، ثم انطلقت الهمهمات ، إيذانًا ببدء مرحلة جديدة من الحرب النفسية.

+

أما نعيم، فكان في تلك الليالي يعيش صراعًا داخليًا مريرًا. كان يستلقي على فراشه ، ويحدق في سقف داره ، فتتزاحم في رأسه الصور: وجه النبي ﷺ، المضيء بالصدق ،

ووجوه اليهود المتآمرة ، وأصوات الشياطين التي تهمس في أذنه : أنت لاعب ماهر ، والكلمة بيدك ، فاجعلها حيث تشاء.

كان يسأل نفسه :من أنا ؟ وأي طريق أسلك ؟ أأنا مع الحق، أم مع نفسي ؟

وفي لحظات الصفاء ، كان يسمع في أعماقه نداء خافتًا : إن الله لا يرضى بالباطل ، وإن الكلمة أمانة.

لكن صخب الدنيا كان أعلى ، وأشد إغواء.

كان يدرك ، في قرارة نفسه ، أن الشائعة ليست مجرد حيلة سياسية ، بل جريمة أخلاقية ، تمزق الأرواح قبل أن تفتك بالأجساد . ومع ذلك ، ظل يتأرجح بين الضفتين ، حتى جاءت اللحظة الفاصلة التي سيبدأ فيها رحلته الكبرى : رحلة من ظلمات الشرك والخبث ، إلى نور الإيمان والنصر والجنة.

+

كانت المدينة ، في تلك الأيام ، كائنًا حيًا، يتنفس القلق والرجاء. في طرقاتها ، يلتقي التاريخ بالمستقبل ، وفي بيوتها ، تتصارع القيم القديمة والجديدة. كانت لحظة تشكل حضاري ، لا تقل عظمة عن لحظات الفتح الكبرى.

في المسجد ، كان المسلمون يتلون القرآن في الأسحار ، فتسري في قلوبهم طمأنينة غامرة ، كأنهم يغتسلون بنور سماوي . وفي حصون اليهود ، كانت تُنسج المؤامرات ، وتُدار جلسات الخمر والمكر ، وتُعدّ الأكاذيب كما تُعدّ السهام في الكنانة.

بين هذين العالمين ، كان الإنسان يقف حائرًا: أيختار النور أم الظلمة ؟ الصدق أم الخديعة ؟ الطمأنينة أم القلق ؟

+

وهكذا انقضت تلك الشهور الثلاثة ، وهي تموج بالأحداث ، وتغلي بالصراعات ، وتلد في رحمها تحولات كبرى. كانت تمهيدًا لمرحلة جديدة من الصراع ، لا بالسيوف وحدها ، بل بالعقول والقلوب.

و مرة أخرى ، سيكون لنا لقاء ثانٍ مع رحلة نعيم بن مسعود ، تلك الرحلة العجيبة التي بدأت في ظلمات الشرك ، ومعاندة الله ورسوله ، وانتهت بنصر الله ورسوله ، وبالجنة التي وعد الله بها الصادقين.

رحلة إنسان ، قبل أن تكون قصة تاريخ .رحلة نفس تتقلب بين الشك واليقين ، حتى تستقر في حضن الإيمان.

في ظلال يثرب
حين تكلّم الصمت، وتصارعت القلوب، وانكشف وجه الخديعة

كانت يثرب ، قبل أن تتشرّف بخطو النبي ﷺ على ترابها ، مدينةً مثقلةً بالأسرار ، تتقاسمها القلوب المتوجّسة كما تتقاسمها السيوف المعلّقة فوق الأعناق. مدينةٌ تنام على صفيحٍ من الأحقاد القديمة ، وتصحو على نداءات الثأر ، وتتنفّس هواءً مشبعًا بالريبة ، حتى إذا جاءها النور من مكّة ، اضطربت موازينها ، وارتجف تاريخها في صمتٍ مهيب.

في ذلك الصباح الذي أشرقت فيه الشمس على وجه رسول الله ﷺ وهو يدخل يثرب مهاجرًا ، لم تكن المدينة وحدها من تغيّر. تغيّرت القلوب ، وتبدّلت النيات ، وتكسّرت مرايا الخديعة القديمة على عتبات عهد جديد. لكن هناك من لم يحتمل هذا الضوء ، فآثر أن يختبئ في الظلال ، ويحيك في الخفاء ما لا يجرؤ على إعلانه في النهار.

قبيلة قينقاع اليهودية كانت في طليعة أولئك الذين أدركوا أن الزمن لم يعد زمنهم. كانوا سادة السوق ، أرباب المال ، وأهل الحيلة المتوارثة جيلاً بعد جيل. خبروا دهاليز السياسة ، وتقلّبوا بين حضاراتٍ شتّى ، ونجوا من تقلبات الدهر بخيوط المكر وحسابات الربح والخسارة. لكنهم، هذه المرة ، وجدوا أنفسهم أمام خصم لا يشبه ما عرفوه من قبل: دعوةٌ لا تقوم على السيف ، بل على القلب، ولا تستمد سلطانها من الذهب ، بل من الإيمان.

+

في إحدى ليالي المدينة ، حين كان القمر يسكب فضته على سطوح البيوت الطينية ، جلس حييّ بن أخطب – أحد زعماء قينقاع – في حجرته الضيقة ، تحيط به لفائف التوراة وصناديق المال . كان وجهه شاحبًا ، وعيناه تلمعان بقلقٍ دفين. تمتم في نفسه:

هذا الرجل الذي جاء من مكّة ، لم يأتِ كما يأتي الفاتحون. جاء وحيدًا ، لكنه يحمل في صدره جيشًا من القيم. إن تركناه يتمدّد في القلوب ، فلن يبقى لنا في يثرب مقام.

كان يسمع من بعيد همسات السوق ، وحفيف الخطى ، كأن المدينة نفسها تتنفّس بقلق. تذكّر تاريخ قومه: كيف نُفوا من ديارهم في اليونان القديمة ، حين حاولوا العبث بموازين القوة ، وكيف تفرّقوا في أرجاء الأرض بعد أن ضاق بهم الرومان ذرعًا ، حتى جاءهم الإمبراطور تيتوس بالسيف والنار ، فشتّتهم في الصحارى والبحار.

قال في سرّه : لن نُطرد هذه المرة. لن ننتظر حتى يشتدّ عود هذا الدين. سنضربه في مهده.

+

في دارٍ بعيدة عن الأنظار ، اجتمع نفرٌ من زعماء قينقاع ، يتقدّمهم نغيم بن مسعود ، التاجر الماكر ، الذي عرف كيف يجمع بين المال والسياسة ، وبين الربا والمساومة. جلسوا في دائرة ، تتوسّطهم قناديل الزيت ، تلقي ضوءًا خافتًا يفضح تجاعيد وجوههم.

قال نغيم ، وهو يمرّر يده على لحيته القصيرة :

لقد فشلنا في إغراء محمد بالمال ، وفشلنا في إحراجه بالأسئلة ، وفشلنا في زعزعة أصحابه بالشعر. لكن الطريق لم يُغلق بعد.

ردّ أحدهم بحدة :

وكيف ؟ لقد بدأ الناس يدخلون في دينه أفواجًا ، حتى كأن المدينة تنقلب علينا.

ابتسم نغيم ابتسامةً غامضة صفراء ، و قال :

إن لم نقدر على هدم البيت من الخارج ، فلنهدمه من الداخل. المنافقون في المدينة كثر ، وعلى رأسهم ابن سلول . قلوبهم معنا ، وألسنتهم مع محمد. هؤلاء مفاتيح الفتنة.

سكت الجمع لحظة ، كأنهم يتأمّلون الخطة في خيالهم ، ثم قال آخر: والشعراء ؟

جرّبناهم ، فخاننا الشعر. بقي سلاح الإشاعة ، وسوق قينقاع خير ميدان.

+

أما رسول الله ﷺ ، فكان يرى ما لا يرونه. كان قلبه مرآةً صافية تعكس خفايا النفوس ، لا بعين الريبة ، بل بعين الرحمة. كان يعلم أن الدعوة إذا اشتدّت ، استدعت مقاومةً أشد. لكنه لم يكن يخشى كيدهم ، بقدر ما كان يخشى على قلوب الضعفاء من أن تضلّ في متاهات الشك.

كان يجلس في مسجده المتواضع ، يحدّث أصحابه عن الصبر ، وكأن كلماته بلسمٌ يسري في عروقهم. كان صوته هادئًا ، لكن في نبرته قوة الجبال.

يا رب، إنك تعلم ما في الصدور. إنهم يمكرون ، لكنك خير الماكرين. فثبّت قلوبنا ، ولا تجعل للفتنة سبيلًا إلينا.

كان يشعر بثقل الأمانة. لم يكن يقود جيشًا ، بل كان يقود أرواحًا ، وكل روحٍ أمانة.

+

انتشرت الإشاعات في سوق قينقاع كما ينتشر الدخان في غرفة مغلقة. قالوا إن محمدًا يفرّق بين الآباء وأبنائهم ، وإن دينه يهدّد التجارة ، وإنه سيقود المدينة إلى حربٍ لا قِبل لها بها . تناقل الناس تلك الأحاديث همسًا ، ثم جهرًا ، حتى كادت المدينة تختنق بسمّها.

في أحد الأزقّة ، التقى رجلان من الأنصار، فقال أحدهما :

أسمعت ما يُقال ؟

سمعت، لكن قلبي لا يصدّق.

وأنا كذلك، لكن الخوف يتسلّل إلى النفوس كما يتسلّل الليل إلى النهار.

كانت الفتنة كريحٍ باردة ، تلسع الوجوه وتترك خلفها قشعريرةً لا تزول.

+

لم يكن رسول الله ﷺ من الذين يواجهون العاصفة بعاصفة. كان يواجهها بسكونٍ أعمق. دعا زعماء قينقاع إلى الحوار ، فجلسوا أمامه ، وقد ارتسمت على وجوههم أقنعةُ الاحترام.

قال لهم بهدوء :

يا معشر يهود، أسلموا تسلموا. فقد علمتم أني رسول الله، تجدون ذلك في كتابكم.

تبادلوا النظرات ، ثم قال أحدهم ساخرًا :

يا محمد ، لا يغرّنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب. نحن أهل بأس ، وإن قاتلتنا لتعلمنّ من نحن.

ساد الصمت، وكان أثقل من الكلام. في تلك اللحظة ، أدرك النبي ﷺ أن القلوب قد أغلقت أبوابها ، وأن المواجهة باتت مسألة وقت.

+

توالت الأحداث ، حتى بلغ كيد قينقاع ذروته. كانت حادثة السوق شرارةً ألهبت نارًا كانت كامنة. لم يعد بالإمكان السكوت. وقف النبي ﷺ في أصحابه ، يحدّثهم عن العدل ، وعن ضرورة ردّ الظلم دون تجاوز.

وفي داخله ، كان صراعٌ آخر: صراع بين الرحمة والحزم . كان يكره أن يُراق الدم ، لكنه يعلم أن ترك الظلم يرسّخه.

يا رب ، إنك تعلم أني ما جئتُ إلا رحمة. فاجعل في هذا القضاء عدلًا ، وفي هذا الحزم شفاءً.

+

حين حُوصرت قينقاع ، لم يكن الحصار مجرد تطويقٍ عسكري ، بل كان حصارًا نفسيًا ، خانقًا ، جعلهم يواجهون ذواتهم لأول مرة. في داخل الحصون ، جلس حييّ بن أخطب وحيدًا ، يتذكّر كل تلك الليالي التي خطّط فيها للمكر. شعر ، لأول مرة ، بثقل التاريخ على كتفيه.

قال في نفسه:

كم خدعنا ، وكم راوغنا ، وكم بعنا الضمائر بثمنٍ بخس. أهذا هو المصير؟

لكن الكبرياء منعه من الاعتراف ، فظلّ صامتًا حتى انكسرت قلاعهم.

+

خرجت قينقاع من يثرب ، كما خرجوا من قبل من مدنٍ كثيرة ، يحملون على ظهورهم أوزار تاريخهم. أما المدينة ، فتنفّست الصعداء ، لكنها لم تنسَ الدرس.

كان النبي ﷺ يقف على أطرافها ، يتأمّل البيوت ، والأزقة ، والوجوه التي تغيّرت. كان يعلم أن الصراع بين الحق والباطل لا ينتهي ، وأن كل جيلٍ يحمل امتحانه الخاص.

قال في نفسه:

ليست المعركة في السيوف ، بل في القلوب . فمن انتصر قلبه، انتصر كل شيء.

وهكذا، بقيت يثرب – المدينة المنوّرة – شاهدةً على تلك اللحظة الفاصلة ، حين التقت السماء بالأرض ، وتصارعت الظلال مع النور ، وانكشف وجه الخديعة أمام سطوع الحقيقة.

خيوط الدسيسة في ليل يثرب

حوار الظلال والنفوس

في تلك الليالي التي كانت فيها يثرب تغفو على قلقٍ دفين ، وتستيقظ على أنفاس ريحٍ محمّلة بأخبار الحرب والدعوة ، كان التاريخ ينسج خيوطه في صمتٍ رهيب ، ويُخفي في طيّاته وجوهًا تبتسم وقلوبًا تمكر ، وعقولًا تزرع الشر كما تُزرع البذور في التربة الرطبة. لم تكن المدينة يومئذٍ مجرد بيوتٍ من طين ، ولا نخيلٍ يمدّ ظلاله على الطرقات الضيقة ، بل كانت ساحةً لصراعٍ نفسي وفكري واجتماعي ، تختلط فيه العقيدة بالمصلحة ، والإيمان بالخديعة ، واليقين بالشكّ.

وفي ركنٍ معتم من تلك الزوايا التي تتوارى عن العيون ، خلا **نعيم بن مسعود** إلى حليفه القديم **حيي بن أخطب** ، زعيم يهود المدينة ، وكأن الليل قد أرخى سدوله ليكون ستارًا لمؤامرةٍ تُحاك بخيوط الخبث ، وتُطرّز بأنفاس الحقد.

جلسا متقابلين ، بينهما سراجٌ واهن الضوء ، يبعث ظلالًا متكسّرة على الجدران ، فتبدو الوجوه أشباحًا مترددة بين الظهور والاختفاء. كانت عينا نعيم تلمعان بدهاءٍ بارد ، فيما كان حيي يتكئ إلى الجدار كمن يزن كلماته قبل أن ينطق بها، إذ يعلم أن كل حرفٍ يُقال في هذه الليلة قد يغيّر مجرى التاريخ.

قال نعيم بصوتٍ خفيض ، كأنما يخشى أن تتسرّب كلماته إلى آذانٍ لا تُبصر:

إنما تكون الشائعة أقسى وأفعل إذا انتشرت بين نساء المسلمين.

ارتجف السراج قليلًا ، أو لعل قلب حيي هو الذي ارتجف طربًا. ابتسم ابتسامةً مائلة ، فيها رضا الشيطان حين يجد سبيله إلى النفس البشرية ، وقال:

لقد أصبت يا نعيم. النساء مفاتيح القلوب ، وهنّ جسور الحديث ، ما أن تهمس إحداهن حتى تعبر الكلمة أودية البيوت كلها.

ثم أضاف وقد برق في عينيه بريق مكر:

أعرف امرأة من الخزرج لا تزال على شركها ، هي أفشى الناس للحديث.

رفع نعيم حاجبيه باهتمامٍ ممزوج بالسخرية:

ومن تلك ؟

صاحبتك سمية بنت أصرم.

ضحك نعيم ضحكة قصيرة ، لكنها كانت كحدّ السكين ، و قال :

بنت العرادة ؟ صدقت يا حيي بن أخطب ، ما أعرف في يثرب أفشى منها للحديث.

سكت قليلًا ، ثم أردف متأملًا:

أتذهب إليها أنت أم أذهب أنا ؟

أجاب حيي بثقة من خبر دهاليز النفوس:

بل أذهب إليها أنا، فقد كان بينك وبينها ما تعرف، ثم عزفت عنها، فلن تتابعك على شيء أبدا.

+

أسرع حيي في ظلمة الليل ، كمن يسابق خياله ، حتى بلغ دار سمية بنت أصرم. كانت امرأة على قدرٍ من الجمال ، وفي لسانها حلاوةٌ تسكر السامعين ، وفي عينيها بريق طموحٍ لا يعرف القناعة . فتحت لها نساء المسلمين أبوابهن ، آنسن لها في المجالس ، وأملنَ أن يدخل نور الإيمان قلبها يومًا، لكنها ظلت تقف عند العتبة، تتفرج ولا تدخل.

دخل عليها حيي ، فاستقبلته بنظرةٍ حذرة، لكنها ما لبثت أن أرخَت ملامحها وقالت بلهجةٍ ودودة:

مرحبًا بأبي صفية، ما جاء بك في هذه الساعة ؟

قال وهو يجلس قُبالتها ، وقد غلّف صوته بطبقةٍ من الأسى المصطنع:

يا سمية، لقد أعيانا - والله - أمر محمد، وقد فكرت في أمرٍ إن أنفذناه بلغنا منه ما نريد.

تقلّص حاجباها دهشةً ، وقالت:

وما ذلك يا أبا صفية ؟

اقترب قليلًا وهمس:

أتعرفين يا سمية كيف يوزع محمد الغنائم على أصحابه من خاصة المهاجرين ؟

ضحكت، وفي ضحكتها شيء من التحدي :

يا أبا صفية ، والله إنك لتعرف خيرًا من ذلك ، فلا تخدعني. أنت تعلم أنه يعدل بين المسلمين جميعًا في القسمة.

تغيّر وجه حيي ، لكنه تمالك نفسه وقال بإصرارٍ لزج:

أي عدلٍ في أن يعطيهم أربعة أخماس الغنائم ، ويخصّ نفسه بالخمس الباقي ؟ الخمس من كل شيء ! أي قسمة هذه ؟

هزّت رأسها قائلة:

ما سمعت من المسلمين ولا من نسائهم غير الثناء على هذه القسمة التي أمر بها قرآنهم.

لم يخزِ هذا الرد ابن أخطب، بل ازداد تصلّبًا:

الخمس لرجلٍ واحد؟ الخمس يا سمية ، والباقي لأكثر من ثلاثة آلاف مسلم!

تنهدت وقالت:

لكنه لا ينال من هذا الخمس شيئًا ، بل يجعله كله في بيت مال المسلمين ، للصدقات ، وابن السبيل ، وفي الرقاب ، وفي إعداد الناس للحرب إذا دهم المدينة عدو.

حدّق فيها طويلاً ، ثم قال بشك :

أتصدقين هذا ؟

أجابته بثقة :

ولِمَ لا أصدقه ، وأنا أزور زوجه عائشة في بيتها ، فلا أجد أثرًا للنعمة والرفاهة؟ وجدتها - والله - تنام على حصيرٍ أثّر في جنبها ، وتأكل الشعير وتشرب السويق.

تكنز ما يأتيها به محمد ؟

ضحكت ضحكة خفيفة وقالت :

عائشة تكنز شيئًا ؟ إنها تنفق كل ما يأتيها به زوجها وأبوها، لا تدري شمالها ما تعطي يمينها.

تغيرت نبرة حيي ، وقال بنبرة استدراج :

إنما تقولين هذا من عجبك بها.

لا أنكر أني أحب عائشة وأحفظ لها الود ، ولكني أعرف أن محمدًا ما كان ليمنعها شيئًا ، وهي أقرب الناس إلى قلبه.

سكت لحظة ثم قال ، كمن يلقي طُعمًا في الماء:

يا سمية ، ما قدر إيمانك بآلهتكم العوالي ؟

انتفضت وقالت بحذر :

واللات، ما تسأل هذا السؤال إلا لأمر.

ابتسم و قال:

أحسب أنني سأصل إلى ما أريد بعونك.

وماذا تريد؟

هنا انحنى قليلًا ، وصار صوته أعمق ، وكأنما ينبع من بئرٍ مظلم:

أن أضرب محمدًا من ناحية هذا الخمس الذي يزعم أنه يضعه في بيت المال. أعددت فراشًا وثيرًا من حرير ، وطرّزته بكل لطيف من صنعة الشام.

ضحكت سمية بدهشة :

لي ؟ أهذا معقول ؟ أعرف أنك يا حيي أبخل أهل الأرض !

قال ببرود:

هذا الفراش ليس لك هذه المرة ، ولكن سيكون لك أضعاف ثمنه إذا فعلت ما نشير به عليك.

وما ذاك؟

اذهبي بذلك الفراش إلى عائشة زوج محمد في وقتٍ لا يكون معها في الدار أحد، وقولي إنه هدية منك ومن بعض صويحباتك في مناسبة نصر المسلمين في بدر.

اتسعت عيناها:

ويحك يا حيي! قد مر على بدر سبعة أشهر ! ثم ماذا إذا قبلته عائشة ؟

قال بابتسامة خبيثة:

إذا قبلته ذهبتِ فتشِيعين بين نساء المسلمين وغير المسلمين ممن ينافقون محمدًا أنه الذي يأمر بالإعراض عن متاع الدنيا ينفق أموال المسلمين على طعامه وفراشه وأثاث بيته.

غاصت سمية في صمتٍ طويل . كانت أفكارها تتزاحم في رأسها : الطمع ، الغيرة ، الذكريات القديمة ، الإحساس بالنبذ ، والرغبة في الانتقام . بدا داخلها كبحرٍ مضطرب ، تتلاطم أمواجه بين عقلٍ يحذر وقلبٍ يطمع.

قالت أخيرًا:

فإذا رفضت عائشة الهدية؟

ابتسم حيي بثقة:

عائشة صغيرة ، تحب المتاع وتهوى الثراء.

ترددت لحظة ثم قالت:

لا يكفيني ما تعدني به من فراش مثل هدية عائشة.

لمن تريدين إذن؟

لزوجك نعيم بن مسعود.

تجهمت ملامحها حين ذُكر اسمه ، وقالت بمرارة:

ما لي أرب في نعيم بعد أن هجرني وذهب إلى بنات قينقاع . أريد حليًا كالتي تتحلى بها زوجك.

لم يتردد حيي:

لك ما تشائين يا سمية بعد أن تقومي بما طلبت.

ثم نهض وأضاف:

فهات هديتك إلى عائشة ، أذهب بها إليها من فوري.

+

لكن ما لم يدركه هؤلاء جميعًا ، أن وراء كل دسيسةٍ عينًا ساهرة ، وضميرًا حيًّا ، وقدرًا يسير في صمت . كانت المدينة ، رغم صغرها ، محاطة بحراسة الإيمان ، وكان في قلوب أهلها نورٌ يفضح الظلمة مهما طال ليلها.

وفي تلك اللحظات التي غادَر فيها حيي دار سمية ، كان التاريخ يكتب سطرًا جديدًا من صراع الحق والباطل ، لا بالحجارة والسيوف وحدها ، بل بالنفوس والكلمات ، بالشائعات والخدع ، وبالقلوب التي تتنازعها نوازع الخير والشر.

كان نعيم في مكانٍ آخر ، يحدّق في السماء ، تتزاحم في صدره مشاعر متناقضة. هل يمضي في هذا الطريق حتى النهاية ؟ أم أن شيئًا خفيًا في أعماقه كان يتململ ، يهمس له بأن في هذا الظلام نهايةً لا تُحمد ؟

لكن الليل كان لا يزال طويلًا، والدسيسة في أول خيوطها ، والمدينة على موعدٍ مع امتحانٍ جديد ، ستنكشف فيه معادن النفوس ، وتتعري فيه الأقنعة، ويعلو فيه صوت الحق رغم ضجيج الباطل.

وهكذا، ظلّت يثرب تمضي في ليلها ، بين دعاءٍ صادق ، ومكرٍ آثم ، حتى بزغ فجرٌ جديد، يحمل معه وعدًا خفيًا بأن النور ، مهما طال غيابه ، لا بد أن يعود.

+

في تلك الليلة التي غلّفها الغبار ، وتوشّحت سماء يثرب بسكونٍ ثقيل كأنّه أنفاس مدينةٍ متردّدة ، كان التاريخ يُعاد تشكيله في الخفاء ، وتُنسج خيوطه من همس النفوس قبل صليل السيوف . لم تكن الحكاية مجرّد فراشٍ وثير يُنقل من بيت إلى بيت، بل كانت امتحانًا للضمير ، ومرآةً مكبّرةً لوجوه البشر حين يخلون بأنفسهم، فتسقط الأقنعة ، وتتكشّف هشاشة الروح ، وتعلو صرخات الصمت.

بلغ من شُحّ حُيَيّ بن أخطب أن أرغم زعماء بني قينقاع كلّهم على أن يقتطعوا من كنوزهم أثمان الفُرُش الوثيرات ، وكأنّه كان يريد أن يشتري بمجموع تلك الأثقال المادية وزنًا أخلاقيًا مفقودًا في داخله . حتى رفاعة بن تابوت ، أكثرهم بخلًا وضنًّا بماله ، انصاع لما أُمِر به ، فدفع ما طُلب إليه دون جدال ، كأنّ يده كانت تُساق إلى الصندوق قسرًا ، بينما قلبه يتقلّص في صدره كقبضةٍ من جليد.

كان الليل شاهدًا على تلك الحركة السرية ، وكانت العيون تتبادل نظراتٍ قلقة ، تتساءل: ألهذا الحدّ يطغى الخوف حتى يُسلَب الإنسان حرّيته في المال والرأي ؟ أم أنّ النفوس حين تُحاصَر بالمؤامرة تفقد قدرتها على المقاومة ؟ .

ذهبت سُمَيّة بالفراش ، تحمله على كتفيها كما يحمل المرء عبئًا أكبر من وزنه ، لا من ثِقَل القطن والصوف ، بل من ثِقَل المعنى. كانت خطواتها بطيئة ، تتعثّر بالحجارة ، وتتعثر أكثر بأسئلة داخلها . كل خطوة كانت كأنّها تُقَرّبُها من هاويةٍ أخلاقية ، وكل نفسٍ كانت تحسّ فيه بوخز الضمير.

وصلت ، و أدّت ما أُمِرَت به ، ثم عادت أدراجها ، وفي انتظارها كان عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، رسول حيي ، متحفّزًا ، يختبئ خلف قناعٍ من لهفةٍ مصطنعة . وما إن رآها حتى اندفع بسؤاله ، كمن يخشى أن يسمع جوابًا لا يرضيه :

أراكِ عدتِ بغير الفراش ، هل قبلته عائشة ؟

رفعت سُمَيّة رأسها ، وفي عينيها بريقٌ غريب ، خليطٌ من الإعجاب والحزن والدهشة. قالت بصوتٍ خافت ، كأنّها تخشى أن يفرّ منه الصدق :

وما رأيتُها فرِحةً مرِحةً سعيدةً قدر ما فرحت حين نُصِب الفراش . جلست عليه تختبر رفاهته ولينه ، وكأنّها تلمس حلمًا لم تألفه.

سكتت لحظة ، ثم تابعت ، وقد رقّ صوتها أكثر:

فلمّا سألتُها عن ذلك قالت :

" هذا ألين على جنب رسول الله من الحصير " .

في تلك اللحظة ، تغيّر وجه ابن سلول ، واشتعل الغيظ في عينيه ، فهتف بنبرةٍ مشوبة بالسخرية والحنق :

عجبًا ! ألا تفكّر إلا في محمد ؟

أطرقت سُمَيّة ، وشعرت بحرارة تسري في وجنتيها ، ثم قالت كالتي تعتذر عن فعلتها :

الحقّ يا ابن سلول أنّه آلمني أن أشارك في الكيد لسيدةٍ رقيقةٍ عطوفٍ كعائشة . رأيت في عينيها صفاءً لم أعهده ، وبراءةً تُربك القلب ، فكيف لي أن أكون سكينًا في خاصرة هذا الصفاء ؟

تشنّج وجه ابن سلول ، واقترب منها خطوة ، وهمس بلهجةٍ حادّة :

ويحكِ ، لا تقولي هذا لحيي ، وإلا ما نلتِ منه الحُليّ التي تطلبين.

اشتعل الغضب في صدر سُمَيّة ، فارتفع صوتها عاليا، وقد انتفض كيانها كله :

ولا أقوله وهو الحق ؟ والله ما في بيت محمد غير ثمراتٍ وماءٍ في جَرّة ، وحصيرٍ خشن. لقد أديتُ لكم ما طلبتموه مني ، فأدّوا إليّ ما طلبتُ.

كانت كلماتها كالسياط ، تلسع صمته ، وتعرّي دواخله. نظر إليها بجفاء ، وقال ببرودٍ مقصود:

اطلبي ذلك من الذي وعدك.

ارتجف قلبها ، لا خوفًا ، بل حنقًا . وقالت، وقد عقدت حاجبيها وتصاعد في صدرها قرارٌ حاسم :

سأذهب إليه من فوري ، فإن ماطلني فضحتكم في يثرب كلها.

+

لكنّ الحكاية لم تكن مجرّد جدالٍ على حُليّ بل كانت رحلةً عميقةً في دهاليز النفس. كانت سُمَيّة ، في طريقها ، تسترجع ما رأت ، وتستعيد تلك النظرة في عيني عائشة ، وتلك الجملة التي خرجت منها بعفويةٍ موجعة :

" هذا ألين على جنب رسول الله من الحصير " .

تساءلت في داخلها : أي قلبٍ هذا الذي يفرح لراحة غيره أكثر من فرحه لذاته ؟ وأي روحٍ تلك التي ترى في نعمةٍ صغيرةٍ بابًا إلى الامتنان لا إلى الزهو ؟ شعرت بوخزٍ في صدرها ، وكأنّ مرآةً نُصبت فجأة أمام روحها ، فتكشّفت فيها طبقاتٌ من الطمع والضعف كانت تحاول إنكارها.

كانت المدينة من حولها نائمة ، لكنّها كانت تسمع أنفاسها كأنّها نشيجٌ طويل ، الأزقّة الضيّقة بدت لها كأمعاءٍ لمدينةٍ مثقلة بالأسرار ، والجدران الطينية كأنّها آذانٌ تتصنّت على كل همسة . كانت كل خطوة تقرّبها من مواجهةٍ لا تعرف كيف ستخرج منها.

وحين وصلت إلى دار حيي بن أخطب ، توقّفت عند العتبة ، وأخذت نفسًا عميقًا. أحسّت أنّها تقف على حافة قرارٍ سيحدّد مصيرها : إما أن تكون أداةً في يد المؤامرة ، وإما أن تتحوّل إلى صوتٍ يفضحها . تردّدت لحظة ، ثم طرقت الباب.

فتح لها الخادم ، وقادها إلى مجلسٍ تتصاعد فيه رائحة البخور ، حيث كان حيي يجلس ، محاطًا بظلالٍ كثيفةٍ من التفكير والقلق . رفع رأسه ، وحدّق فيها طويلًا ، كأنّه يزن كلماتها قبل أن تنطق.

جئتُ لأقبض ما وُعِدتُ به ، قالت بثباتٍ لم تكن تعلم أنّها تملكه.

ابتسم ابتسامةً جانبية ، وقال ببرود :

لكلّ شيءٍ أوانه.

شعرت بأنّ الأرض تميد تحت قدميها ، لكنّها تماسكت، وقالت بصوتٍ صارم:

وأنا لكلّ صبرٍ حدّ . لقد نفّذتُ ما طلبتموه حرفًا بحرف . وإن ماطلتم ، فستعرف يثرب كلّها ما يُدبَّر في ليلها.

ساد صمتٌ ثقيل ، تكسّرت فيه أنفاس الحاضرين. كان حيي يحدّق فيها ، يحاول أن يستكشف: أهي تهديدات امرأةٍ يائسة ، أم وعدُ عاصفة ؟ وفي تلك اللحظة ، أدرك أنّ الخيوط التي نسجها بإحكام بدأت تتراخى.

+

وفي مكانٍ آخر من المدينة ، كانت عائشة تجلس قرب المصباح، تحدّق في الفراش الجديد ، لكنّ فكرها كان أبعد من نعومته. كانت تفكّر في ذلك التناقض المؤلم بين بساطة العيش ونُبل الرسالة . كانت ترى في كلّ نعمةٍ اختبارًا جديدًا للشكر ، وفي كلّ حرمانٍ تربيةً للنفس.

قالت في سرّها:

" يا ربّ، علّمتني أن الغنى ليس في كثرة المتاع ، بل في طمأنينة القلب . فاحفظ لنا هذه الطمأنينة من كيد الكائدين ".

كانت تشعر ، دون أن تدري التفاصيل، بأنّ حولها دوّامةً من الخفاء ، وأنّ هذا الفراش لم يأتِ وحده ، بل حمل معه ظلالًا من نوايا لا تُرى.

+

هكذا ، تداخلت خيوط المصالح والأطماع ، مع خيوط البراءة والإيمان ، في نسيجٍ واحد. وكانت المدينة كلّها مسرحًا لصراعٍ صامت ، تتواجه فيه النفوس قبل السيوف. لم يكن الصراع بين أشخاصٍ فقط ، بل بين قيمٍ متناقضة : بين الشحّ والسخاء ، بين الكيد والصفاء ، بين المصلحة والضمير.

وفي قلب هذا المشهد ، كانت سُمَيّة تقف عند مفترق طرق ، تحمل في صدرها سرًّا قادرًا على أن يشعل المدينة أو يوقظها. كانت تعرف أنّ كلمتها القادمة ستحدّد صورتها أمام نفسها قبل الناس : إمّا خائنةً لضميرها ، وإمّا شاهدةً على الحقيقة.

وهكذا ظلّت يثرب ، في تلك الليلة ، تحبس أنفاسها ، تنتظر فجرًا لا تدري: أسيشرق بنور الصدق ، أم سيطلع مثقلاً بغيوم المؤامرة؟

+

همسُ السوقِ وصمتُ الحصير
رحلة في ضمير المدينة

في تلك الأيام التي كانت فيها يثرب تفتح عينيها على فجرٍ جديد ، فجرٍ تتصارع فيه القلوب بين إيمانٍ يشتدّ عوده ، ونفاقٍ يتخفّى في عباءة الحياد ، كانت الأزقة تضجُّ بهمهماتٍ تشبه زحفَ الظلال على جدران البيوت الطينية. كان الهواء مثقلاً بالأسئلة ، والوجوه متعبة من انتظار الحقيقة ، بينما تتناسل الأقاويل في الأسواق كما تتناسل الرياح في الليالي العاصفة.

ذهب ابن سلول ، وحييّ بن أخطب ، ونعيم بن مسعود في كل مجتمع ، لا يتركون مجلساً إلا وأشعلوا فيه فتنة ، ولا طريقاً إلا ونثروا فيه بذور الشك . كانوا يسيرون بين الناس كما يسير السم في العروق ، لا يُرى أثره أول الأمر ، لكنه ما يلبث أن يُسقط الجسد في وهنٍ خفي . وكان نادٍ في يثرب يبالغون في وصف ما في بيت محمد من ترفٍ وثراء ، حتى لكأنهم يصوغون من الأكاذيب قصوراً من ذهب ، ويكسون الوهم حللاً من حرير.

قالوا:

وهذا كله من مال الغنائم ، من الخمس الذي يزعم محمد أنه يضعه في بيت مال المسلمين لحاجتهم .

ثم أردفوا :

لو رأيتم الفراش الذي ينام عليه محمد ، لكان لكم قولٌ غير هذا الذي تقولونه فيه .

وتابعوا ، وكأنهم يزيدون النار حطباً :

وحقّ يهود ، ليس في دار رفاعة بن تابوت ، وهو من تعرفون ثراءه وحبه للترف ، مثل ما في دار محمد من فراشٍ وثير وكنفاس حريرية رخية .

كانت الكلمات تتدحرج في السوق كما تتدحرج الحجارة من قمة جبل ، تصيب من تصيب ، وتفلت ممن تفلت ، لكنها لا تمضي بلا أثر . وبلغ الهمس الخبيث إلى أذن أبي بكر ، وإلى أذن عمر . التقيا في زقاقٍ ضيق ، وقد ارتسمت على وجهيهما ملامح دهشةٍ مشوبة بالأسى.

قال أبو بكر بصوتٍ يخالطه حزنٌ دفين :

ما أكذب هؤلاء الناس يا أبا حفص ! أفي دار ابنتك مثل هذا الذي يزعمون أنه في دار ابنتي ؟ .

توقف عمر لحظة ، كأن السؤال قد هبط عليه من سماء بعيدة ، ثم قال :

عجباً لك يا أبا بكر ! أتسألني عن رسول الله ، وأنت أعلم المسلمين بحاله ؟ أتعرفه منذ نعومة الدعوة ، وتعرف زهده ، وصبره ، وجوعه ، وتريد أن تصدق همس السوق ؟

خفض أبو بكر رأسه ، وقد شعر بأن السؤال كان أضعف من أن يُقال ، لكنه خرج من قلبٍ جريح :

قال أبو بكر بصوت خفيض :

صدقت يا أبا حفص. لقد كنت عند ابنتي عائشة منذ أيام، فلم أرَ شيئاً مما يتكلمون عنه.

ومع ذلك، لم يهدأ له بال. كان قلبه كطائرٍ مذعور ، يضرب بجناحيه في قفص الشك، لا يطمئن حتى يرى بعينه. كان يجاهد في ألا يصل إلى رسول الله شيء مما يشيعه أعداء الله والمنافقون ، وكأنما أراد أن يصون قلب النبي من وخزات الكلام ، ومن شوك الظنون . فانصرف إلى دار ابنته عائشة في غيبة الرسول.

دخل الغرفة في صمتٍ متوجس. ما إن جال ببصره في أرجائها حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، وشَرِقَ بصواه ، وهو يهمس :

استغفر الله العظيم ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، استغفر الله العظيم ، وأعوذ به من الشيطان الرجيم .

تطلعت إليه عائشة في دهشةٍ صادقة ، وقد هالها ما رأت من انكسار أبيها :

بالله يا أبت ، تتعوذ من الشيطان ، وتنهمر دموعك على خديك ؟ أَرأيت في الدار ما يُريبك ؟ .

اقترب أبو بكر ، وقد انحنى ظهره كأن أثقال المدينة كلها استقرت فوق كتفيه ، وقال بصوتٍ خافت :

يا ابنتي ، ألا تعرفين ماذا يشيعه الناس في سوق قينقاع منذ صباح الأمس ؟ يزعمون أن رسول الله اقتنى أثاثاً وفراشاً .

أدركت عائشة ما يعنيه أبوها ، فابتسمت ابتسامةً رقيقة ، و قالت :

هذا إذن ما جاء بك الساعة.

ثم أردفت ، وقد غلبتها المرارة :

ألمني والله أن أسمع ما يشيعون بين المسلمين بهمساتهم الخبيثة في السوق.

وفي محاولةٍ منها لتخفيف وطأة الموقف ، قالت ممازحة :

من فراشٍ وثيرٍ أنيق ، مطرّزٍ بصناعة أهل الشام !

اتسعت عينا أبي بكر دهشة ، وقال :

ذلك والله ما يتهامسون به . أكان لك مثل هذا الفراش ؟

قالت ببساطة :

أجل.

أكفهر وجه الصديق ، وانعقد حاجباه من الدهشة :

ويحك يا عائشة ! أَجاءكِ به رسول الله ؟

قالت، وهي تزداد مرحاً :

لا والله.

اشتد غضب أبي بكر ، وارتفعت نبرته :

تكلمي يا بنت أسماء ! من أين لك هذا الفراش ؟

قالت في هدوءٍ ملامس للرجاء :

لا تشتد بي يا أبت، حتى لكأنك تنكر ابنتك وإيمانها. إنما أهدتنيه البارحة سمية بنت الصرم ، التي تكنونها ببنت العرجة.

قال أبو بكر في دهشة :

بنت العرجة صاحبة نعيم بن مسعود الأشجعي ؟

أجل.

سكت قليلاً ، ثم قال كمن يستعيد خيطاً خفياً من الأحداث :

لهذا أراها تتردد منذ الصباح على حصن حيي بن أخطب ، كأنما تطالبه بشيء ، فيردها عن بابه بعض خدمه.

قالت عائشة :

جاءتني بذلك الفراش وقالت: هدية لرسول الله في إبان الله، وتعني نصر بدر.

قال أبو بكر :

تهديك لنصر بدر بعد الواقعة بسبعة أشهر ؟ وقبلتِ هديتها يا عائشة ؟

قالت في حسرةٍ شفافة :

والله يا أبت، ما استقر الفراش في بيتي ساعة. كان والله وثيراً أنيقاً.

قال أبو بكر ، وقد بدا في صوته ظل حزن :

وفي صوتك يا عائشة حسرة على ذلك.

تنهدت ، و قالت :

ولم لا أحزن ؟ وقد سعدت به ، وأوشكت أن أطرح الحصير الذي أثر في جنب رسول الله . ثم جاء عليه السلام فرآه ، وحكيت له ما جرى ، فتغير وجهه ، ونغر عرق الغضب الذي تعرف في جبهته ، وحمل الفراش على كتفيه حتى وضعه في بيت مال المسلمين ، ثم عاد. ما قدرت أن أكلمه من فرط غضبه ، وبقي الحصير كما كان .

ساد صمتٌ عميق . كان الصمت أبلغ من الكلام ، وأشد وقعاً من كل همس السوق . شعر أبو بكر بأن قلبه يهدأ ، وأن سحابة الشك تتبدد شيئاً فشيئاً . لكنه أدرك في الوقت نفسه كم هي قاسية هذه المعركة الخفية التي تدور في النفوس ، وكم هو ثقيل حمل الدعوة حين تُقذف بالظنون.

خرج من دار ابنته وهو يسترجع في ذاكرته صورة النبي :

ذلك الرجل الذي كان يستطيع أن يعيش في رغدٍ لو شاء ، لكنه اختار أن يكون الحصير وسادته ، وأن يكون الجوع جليسه ، وأن يكون الصبر رداؤه. كان يرى في هذا المشهد درساً يتجاوز اللحظة ، درساً في معنى الزهد ، وفي فلسفة القيادة ، وفي جوهر الرسالة.

أما في السوق ، فكان الهمس لا يزال يدور ، تتناقله الأفواه كما تتناقل الريح رائحة المطر . لكن بين تلك الهمسات ، كانت هناك قلوب تعرف الحقيقة ، وصدور تحفظ السيرة ، وأرواح ترى في ذلك الحصير تاجاً لا يضاهيه تاج.

وهكذا ، بين صخب السوق وصمت البيوت ، بين همس النفاق ونبض الإيمان ، كانت المدينة تمضي في رحلتها الكبرى نحو النور ، تتعثر أحياناً ، لكنها لا تسقط. كان التاريخ يُكتب في تلك اللحظات الصغيرة ، في دمعة أبي بكر ، وفي ابتسامة عائشة ، وفي غضبة رسول الله من فراشٍ وثير. وكان المعنى أعمق من كل رواية :

أن العظمة لا تُقاس بما نملك ، بل بما نترك ، وأن القيادة ليست في الترف ، بل في القدرة على أن نكون مثالاً حين يغوينا المثال المضاد.

وهكذا بقي الحصير شاهداً صامتاً على زمنٍ كان فيه الصدق أثقل من الذهب ، وكان الزهد أبلغ من كل بيان ، وكان الإنسان يُبنى من الداخل قبل أن تُشاد له القصور.

+

حين يتكشّف القناع

اعتراف سمية ورحلة الروح بين الخديعة والهداية

في تلك الليالي التي كانت المدينة المنوّرة فيها تتنفّس القلق وتختزن في صدرها ارتعاش المكر ، كان التاريخ يكتب سطوره بحبرٍ من دموع ودماء ، وتتشابك فيه خيوط الإيمان والخيانة ، كأنما القدر نفسه يتأمّل البشر وهم يعبرون امتحانهم الأكبر. كانت الرياح التي تهبّ من أطراف الصحراء تحمل معها همساتٍ ثقيلة ، وتدفع بالأسرار إلى حافة البوح ، بينما تظلّ القلوب معلّقة بين خوفٍ ورجاء.

حييّ بن أخطب، ذلك الذي جعل من الدهاء درعًا ومن الحيلة سلاحًا ، أبى إلا أن يتنصّل من وعدٍ قطعه لسمية ، بعد أن خاب مسعاه وسقطت خططه في مستنقع الفشل. كان قد أغراها بوهم النجاة ، وبسراب النفوذ ، وبطريقٍ معبّدٍ بالخلاص ، فإذا به يتركها في منتصف الطريق ، عارية من كل يقين ، محاطة بسيوف الشك ، وأسئلة الندم.

وقفت سمية بنت الهرجة يومئذٍ على أطلال أحلامها المنهارة ، تحدّق في المرآة فلا ترى سوى امرأة خُدعت باسم العقل ، واستُدرجت باسم الحكمة ، وسُرقت روحها باسم المصلحة . أحسّت كأن الأرض تميد تحت قدميها ، وكأن المدينة بأزقّتها وأسواقها وبيوتها الطينية تضيق عليها حتى تكاد تخنق أنفاسها.

فخرجت ، لا تلوي على شيء ، تجوب الطرقات ، وتطرق الأبواب ، وتقتحم المجالس ، تفضح الخديعة وتعرّي الوجوه ، تذكّر اليهود والمنافقين بكل ما فيهم من شرٍ دفين ، وتصرخ في وجوههم بأن الأقنعة قد سقطت ، وأن الحقيقة لا تُحجب إلى الأبد. كانت كلماتها نارًا ، وصوتها زلزالًا ، وعيناها مرآتين تعكسان خزيهم.

لكن الصرخة ، مهما علا صداها ، لا تشفي الجرح وحدها . فحين خفّ ضجيج الغضب في صدرها ، عاد صوت الضمير أكثر حدّة ، وأشدّ إيلامًا . راحت تسأل نفسها : كيف انزلقت قدماها في هذا المنحدر ؟ كيف وثقت بمن جعل من الكذب دينًا ومن المكر عقيدة ؟ وأيّ فراغٍ كان في قلبها حتى سمحت للخديعة أن تستوطنه ؟

قضت ليلتها تتقلّب على فراشٍ من قلق ، تتنازعها صور الماضي ، وتجلدها لحظات الضعف ، حتى بدا لها أن خلاصها لن يكون إلا في الاعتراف ، في العودة إلى النور ، في طرق باب الصدق مهما كان الثمن.

وعند انبلاج الفجر ، شدّت خمارها على رأسٍ مثقل بالأسئلة ، واتّجهت بخطواتٍ متردّدة إلى بيت عائشة بنت أبي بكر ، زوج النبي ﷺ ، وقلب المدينة النابض بالرحمة والفهم . كانت تشعر بأن كل خطوة تقرّبها من ذلك الباب إنما تنزع عنها طبقة من العتمة.

حين دخلت ، وقفت لحظة عند العتبة ، كأنما تستأذن قلبها قبل أن تستأذن صاحبة الدار. كانت عائشة جالسةً ، يحيط بها سكون الصباح و وقاره ، فرفعت بصرها ، والتقت عينان تحملان تاريخًا من الألم والأمل.

انفجرت سمية باكية ، وقالت بصوتٍ متهدّج :

يا بنت أبي بكر ، ما يرضيك مني بعد أن خدعني شيطان اليهود ، حيي بن أخطب ، وصاحبه عبد الله بن أُبيّ ، ومعهما نعيم بن مسعود ؟ ما يرضيك مني وقد جعلوني أداةً في أيديهم ، وسهمًا مسمومًا في صدور الأبرياء ؟

سكتت لحظة ، وكأن الكلمات قد أثقلتها ، ثم تابعت:

لقد عرفت اليوم مقدار ضعفي ، ورأيتُ نفسي عاريةً من كل سند. فما الطريق إلى الغفران ؟ وأين باب النجاة ؟

نظرت إليها عائشة نظرةً عميقة ، تتداخل فيها الحكمة بالرحمة ، وقالت بهدوءٍ يشبه نسيم الفجر :

أنتِ والله تعرفين ما يرضيني منك يا سمية.

ارتعش صوت سمية ، وقالت كأنها تستجمع شجاعة العمر كله :

تعنين الدخول في الإسلام ؟ نعم، قد عرفت. فدلّيني على رسول الله ، لأذهب إليه وأشهد شهادة الحق ، وأقصّ عليه ما يدبّرون لبعض أصحابه.

في تلك اللحظة ، أحسّت كأن ثقل الجبال انزاح عن صدرها ، وكأن بابًا من نور قد فُتح في جدارٍ مظلم. قالت عائشة :

ابقي معي يا سمية ، فلن يلبث رسول الله أن يعود من المسجد.

جلست سمية ، تتأمّل المكان ، وتستعيد شريط حياتها. كانت ترى نفسها في طفولتها ، حين كانت روحها نقيّة لم تمسّها حيلة ، ثم تراها شابةً تائهة ، تتقاذفها أمواج الطموح والخوف. أدركت أن الإنسان لا يضلّ دفعةً واحدة ، بل ينزلق خطوةً بعد خطوة ، حتى يستيقظ في قاع لا يعرف كيف وصل إليه.

وما هي إلا ساعة حتى عاد رسول الله ﷺ ، تتبعه سكينة تشبه ظلّ النخيل وقت الظهيرة. وقفت سمية ، وارتجف جسدها ، لكنها شعرت بقوة خفية تسند ظهرها. تقدّمت ، ونطقت بالشهادتين ، فكانت كأنها تولد من جديد.

قصّت عليه ما دار في الخفاء ، وكشفت له خطط اليهود والمنافقين ، فكان كلامها سياجًا يحمي المؤمنين ، ونورًا يفضح الظلام. دعا لها النبي ، فبكت ، لا خوفًا ولا ندمًا ، بل شكرًا وامتنانًا.

انتشر خبر إسلامها في المدينة ، فانكمش يهود بني قينقاع أيامًا من فرط خزيهم ، وتواروا خلف جدران صمتٍ ثقيل. أمّا عبد الله بن أُبيّ ، فكان يتقلّب في نار حقده ، يخطّ المؤامرات في عتمة صدره.

+

ومضت الأيام ، حتى عاد نعيم بن مسعود من اليمن ، حيث كان قد سافر للتجارة. عاد لا يحمل سوى أرباحٍ من دراهم ، وخططٍ من سمّ. لم تمضِ أيام حتى اشترك في مؤامرة جديدة ، أشدّ دهاءً وأخطر أثرًا. هذه المرة لم تكن تستهدف غرباء ، بل أقرب الناس إلى رسول الله وأحبّهم إليه : حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله ورسوله، وبطل يوم بدر.

كان حمزة رمز القوة الممزوجة بالرحمة ، وسيفًا مشهرًا في وجه الظلم. كانت هيبته تزرع في قلوب الأعداء خوفًا ، وفي نفوس المؤمنين طمأنينة. لذلك رأى المتآمرون أن ضربه ضربة في قلب الدعوة نفسها.

في تلك الليلة التي نُسجت فيها الخيوط السوداء ، جلس نعيم بن مسعود مع حييّ بن أخطب وعبد الله بن أُبيّ في زاوية معتمة من أطراف المدينة. كانت المصابيح الزيتية ترسل ضوءًا شاحبًا ، يفضح خطوط وجوهٍ أكلها المكر. تبادلوا النظرات ، وكأن كل واحدٍ منهم يقرأ نوايا الآخر ، ثم بدأوا يتحدثون همسًا ، يحيكون المؤامرة كما تُحاك الأكفان.

قال نعيم :

حمزة شوكة في حلوقنا. إن بقي حيًا ، فلن تهنأ لنا راحة.

ردّ حييّ، وعيناه تلمعان :

نحتاج إلى ضربة لا تثير الشبهات ، ولا توقظ المدينة. ضربة تأتي من حيث لا يُنتظر.

وهنا ابتسم عبد الله بن أُبيّ ابتسامة باردة ، و قال :

لكل قلبٍ مدخل ، ولكل نفسٍ ضعف. علينا أن نجد الطريق إلى روحه.

وفي الجانب الآخر من المدينة ، كانت سمية تعيش صراعًا من نوع آخر. فقد صارت، بعد إسلامها ، تشعر بثقل المسؤولية. لم تعد تلك المرأة التي تبحث عن خلاصها الفردي ، بل أصبحت ترى في نفسها عينًا ساهرة على أمن الجماعة. كانت تستعيد في خلوتها كلمات النبي ، وتردّد في سرّها آياتٍ تنقّي روحها ، وتشدّ عزيمتها.

غير أن الماضي لم يكن يتركها بسهولة. كانت تسمع أحيانًا همسات الاتهام في الأزقة ، ونظرات الشك في العيون. لكنها كانت تقول لنفسها:

ليكن عملي جوابًا ، وليكن صدقي درعًا.

وفي ليلةٍ مقمرة ، بلغها خبر المؤامرة الجديدة. جاءها رجلٌ من الأنصار ، وقد بدا عليه القلق ، وأخبرها بما سمع من همسٍ يتردّد في مجالس المنافقين . شعرت بقشعريرة تسري في جسدها . حمزة؟ ذلك الجبل الراسخ ؟ كيف يجرؤون ؟

لم تتردّد. أسرعت إلى عائشة ، ثم إلى رسول الله ، وأخبرته بما بلغها. استمع إليها بإنصاتٍ عميق ، وكأنما يجمع في قلبه شتات الصورة. دعا الله، ثم اتّخذ التدابير اللازمة ، فأُحبطت المؤامرة قبل أن تولد.

في تلك اللحظة ، أدركت سمية معنى أن يكون الإنسان جزءًا من قدرٍ أكبر ، وأن الهداية ليست نجاة فردية فحسب ، بل مسؤولية تُحمّل صاحبها عبء النور في زمن العتمة

ومضت الأيام ، تتوالى فيها الأحداث ، وتتعاقب فيها الفتن والانتصارات. كانت المدينة ككائنٍ حيّ، يمرض ويشفى ، يتألّم ويقوى. وكانت سمية ترى نفسها تتبدّل ، كأن روحها تُصاغ من جديد. صار قلبها أكثر سكينة ، وعقلها أكثر صفاء ، ونظرتها إلى العالم أوسع وأعمق.

في خلواتها ، كانت تحاور نفسها :

أكنتُ بحاجة إلى تلك السقطة لأعرف معنى الوقوف ؟ هل كان لا بدّ أن أتذوّق مرارة الخديعة لأفهم حلاوة الصدق ؟

ثم تجيب: لعلّ الله أراد أن يجعل من كسري جسرًا ، ومن ضعفي قوة ، ومن ضياعي طريقًا.

وهكذا، تحوّلت قصتها من حكاية امرأة ضلّت ، إلى سيرة روحٍ وجدت طريقها وسط العواصف. صارت مثالًا على أن الإنسان ، مهما أوغل في الخطأ ، يظلّ قادرًا على العودة ، إذا امتلك شجاعة الاعتراف ، وصدق التوبة ، وإرادة النور.

أما حييّ بن أخطب ونعيم بن مسعود وعبد الله بن أُبيّ، فقد ظلّوا يتخبّطون في ظلماتهم، يطاردون سراب السلطة، ويهربون من مواجهة ذواتهم. كانوا كمن يشرب من ماء البحر ، لا يزيده إلا عطشًا.

وهكذا، كتب التاريخ في تلك الأيام فصلًا من فصوله الخالدة: فصلًا عن الخديعة والهداية ، عن السقوط والقيام ، عن الإنسان حين يواجه نفسه في مرآة الحقيقة. فصلًا يذكّر بأن الصراع الأكبر ليس بين جيوشٍ وسيوف ، بل بين نورٍ يسكن القلب وظلمةٍ تحاول ابتلاعه.

وفي نهاية المطاف ، بقيت المدينة، رغم الجراح ، واقفةً كالنخلة في وجه الريح ، تمدّ جذورها في عمق الإيمان ، وترفع رأسها إلى سماء الرجاء، شاهدةً على أن الحق ، وإن طال ليله ، لا بدّ أن يشرق فجره.

حين تكسّرت حِيَلُ يثرب على صخرة الإيمان
ملحمة الصمود النفسي والروحي في مواجهة الكيد الخفي

كانت يثرب في تلك الأيام مدينةً تموجُ تحت سطحها بأمواجٍ خفية ، لا تُرى بالعين ، لكنها تُحَسّ في ارتعاش القلوب ، وفي قلق النظرات ، وفي تردّد الأنفاس بين الأزقة الضيقة . فمنذ أن أشرق فيها نور النبوة، تبدّل ميزان القوى ، وانقلبت المعادلات القديمة رأسًا على عقب. لم يعد المال هو السيد ، ولا النسب هو السلطان ، ولا المكر هو الطريق الأقصر إلى الهيمنة. صار الإيمان هو المعيار ، وصار التقوى هي المقياس ، وصار الصدق هو العتبة الأولى لكل مجد.

وهنا ، تحديدًا ، بدأت الحيل تتهاوى.

تتهاوى كما تتهاوى أوراق الخريف حين تعصف بها ريح الحقيقة ، وتتساقط أقنعة الزيف أمام نورٍ لا يُقاوَم . كانت اليهود في يثرب قد خبروا دهاليز السياسة ، وأتقنوا فنون التفرقة ، وأحكموا قبضتهم على الأسواق والديون ، وتربّعوا طويلًا على عروشٍ من الربا والاحتكار والخداع. لكن ظهور الإسلام زلزل أركان هذا العالم المصنوع من الطين ، فارتبكوا ، واضطربت حساباتهم ، وأدركوا أن سلطانهم القديم آيل إلى أفول.

فلم يجدوا بدًا من استدعاء أسلحتهم القديمة : بثّ الفرقة بين الأوس والخزرج ، وإحياء نيران العصبية ، وإثارة الأحقاد المدفونة ، عبر صاحبهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، الذي كان يرى في كل انتصار للمسلمين هزيمة شخصية له ، وفي كل ارتفاع لراية الإسلام سقوطًا لرايته التي حلم بها طويلًا.

ثم مضوا إلى ما هو أخطر : الكيد لرسول الله ﷺ ذاته ، بمحاولة تلويث سمعته ، والطعن في ذمته المالية. كانوا يظنون أن الناس إن شكّوا في نزاهته ، انفرط عقد الثقة ، وتداعى البناء كله من أساسه.

لكن أي عبث هذا ؟

المسلمون الذين كانوا يرون رسول الله في بيته مثال الزهد المطلق ، والتجرد الكامل من زخارف الدنيا ، كيف يمكن أن تُخدع قلوبهم ؟ كانوا يشاهدون طعامه البسيط : ثمرة يتقوّت بها ، أو كسرة خبز شعير يابس ، وجرعة ماء تروي عطش يوم طويل. كانوا يرون فراشه الحصير الخشن ، وقد ترك أثره في جنبه الشريف ، كوشمٍ من الألم الصامت ، يشهد على صدق صاحب الرسالة أكثر مما تشهد آلاف الخطب.

ومع ذلك، لم ييأس أعداء النور . فالشيطان إذا ضاق به الطريق ، راوغ ، وإذا أُغلق أمامه باب ، بحث عن نافذة . فاهتدوا إلى وترٍ جديد ، أكثر دهاءً وأعمق أثرًا : اللعب على وتر الحنين إلى الدنيا ، وإيقاظ الشهوات النائمة ، ومخاطبة النفس من مدخل ضعفها لا من باب قوتها.

وكان الهدف: سعد بن معاذ.

سيد بني الأشهل . الفتى الذي كان قبل إسلامه نجم المجالس ، وأنيق الثياب ، معطر الروح والجسد ، يختال في حلله المطرزة بخيوط الذهب ، تمشي الهيبة في ركابه ، ويهابه القريب قبل البعيد . ثم أسلم ، فانقلبت حياته انقلابًا عجيبًا : زهد ، وتقشف ، وبذل ، حتى صار مثالًا حيًّا على أن التحول الحقيقي يبدأ من الداخل.

رآه اليهود ، فاختاروا إليه أخبثهم دهاءً : ابن صوريا.

كان هذا الرجل يعرف كيف يتسلل إلى النفوس ، وكيف ينفذ من الشكوك الصغيرة إلى الهزائم الكبرى . لم يكن صوته عاليًا ، ولا لغته فجة ، بل كان يتكئ على نبرة الحزن المصطنع ، ويستتر خلف قناع النصح الكاذب.

مضى إليه في صباحٍ هادئ ، والشمس تلقي بخيوطها الذهبية على جدران يثرب ، كأنها تبشر بيوم سلام ، بينما كان في الصدور إعصار.

وقف ابن صوريا أمام سعد ، وتأمله طويلًا ، ثم قال بصوتٍ يحمل شجنًا مصطنعًا:

والله يا أبا عمرو ، إني ليحزنني أن أراك على هذه الحال... أأنت مريض ؟

توقف سعد لحظة، وألقى عليه نظرة فاحصة ، كمن يزن الكلمات قبل أن يردها . ثم قال في دهشة هادئة :

وما يدعوك إلى هذا القول يا ابن صوريا ؟

تنهد اليهودي ، كأن قلبه مثقل بالأسى :

عجبًا ! ألم يحدثك أحد من قبل مثل حديثي ؟ إنك شاحب الوجه ، خالي النظر ، حتى لأحسب أنك لم تصب طعامًا منذ يومين.

كان سعد يسمع ، لكن في داخله كان صوت آخر يتحدث.

ها هو المكر يعود في ثوب الشفقة . يا نفس ، لا تنخدعي . تذكري أيام الجاهلية ، وتذكري كيف كانوا يصنعون من الحزن جسورًا إلى الطعن.

قال ساخرًا ، راغبًا في إنهاء الحديث :

ثم ماذا ؟

ابتسم ابن صوريا ابتسامة مائلة ، و قال :

ثم هذه المرقعة التي تخطر بها بين الناس... أين هذه من ثيابك المعطرة ، يا حسن الوجه ؟ لشدّ ما غيّرك هذا الدين. جاءكم به محمد ، يا معشر الأوس ، فأحالكم فقراء جوعى.

هنا، اشتعل في صدر سعد شيء يشبه البرق . لكنه لم ينفجر ، بل انساب في عروقه حكمة ووقارًا . همّ أن يتكلم ، فقال :

يا ابن صوريا ، إن...

فقاطعه اليهودي سريعًا :

وبالله لا تحدثني عما يُمنّيكم به محمد من نعيم مقيم في الجنة.

ضحك سعد ضحكة قصيرة ، فيها سخرية موجعة ، وقال بقسوة :

ما أحسبك، يا ابن صوريا ، تكفر بالجنة والنار ، والتوراة تحدثكم بهما في كل فقرة من فقراتها !

ارتبك الرجل قليلًا ، ثم قال متماسكًا :

وإنها لتحدثنا أيضًا عن نعيم الدنيا ، وحقنا في الاستمتاع بطيباتها.

وهنا، انفجر سعد ، لا صراخًا ، بل بيانًا كالسيف :

بالربا الفاحش يا ابن صوريا ؟ بكدّ البغايا ؟ بنشر الغلاء في الأسواق لتجمعوا أموال الناس بالباطل ؟ قد طنت صاحبكم في جاهليتي ، وحذقتُ كل أساليبكم في الخداع والكذب والتمويه ، فلا تقربني بعد هذه الساعة بمثل هذا القول !

ساد صمت ثقيل.

كان ابن صوريا يحدق في وجه سعد ، كمن اصطدم بجدار لا يُخترق . أما سعد، فكان داخله يموج بمعركة أخرى ، أعنف وأعمق.

لقد تذكّر أيامه القديمة : مجالس الطرب ، وثياب الحرير ، ونشوة السلطة ، وكيف كان الناس ينحنون أمامه. ثم نظر إلى نفسه الآن ، في ثوبه البسيط، وقلبه الممتلئ . وسأل نفسه: أأنا خاسر حقًا ؟ أم أنني للمرة الأولى رابح ؟

تسلل هذا السؤال إلى أعماقه ، فوجد الإجابة تتشكل ببطء ، ولكن بثبات. لقد كسب نفسه . كسب حريته من عبودية المال والجاه . كسب طمأنينة لا تُشترى . كسب يقينًا يجعل الليل سكينة ، والموت عبورًا ، لا فناء.

في تلك اللحظة ، مرّ طيف رسول الله ﷺ في خاطره . تذكّر وجهه الوضيء ، ونبرته الحانية ، وصبره على الأذى ، وتواضعه الذي يكسر قلوب الجبابرة . تذكّر كيف كان يجلس بين أصحابه كواحدٍ منهم ، لا يتميّز عليهم إلا بالصدق والنور.

كيف أبيع هذا كله بثوبٍ مطرّز ؟ كيف أستبدل يقينًا يسكن الروح بلذةٍ زائلة ؟

ابتسم سعد في داخله. لقد انتصر.

أما اليهود ، فقد عادوا بخيبة جديدة، تزيد سجلهم سوادًا . لقد سقطت حيلتهم كما سقطت من قبل ، وارتدّ كيدهم إلى نحورهم. لأنهم لم يفهموا سر هذا التحول العميق : أن الإيمان حين يستقر في القلب ، يصنع حصنًا لا تهدمه الجيوش ، ولا تنفذ إليه الشبهات.

ومع كل محاولة فاشلة ، كانوا يزدادون حنقًا ، ويضيق صدرهم أكثر. كانوا يرون المدينة تتغير ، والأسواق تُنقّى ، والقلوب تتآلف ، والأوس والخزرج يتصافحون بعد قرون من الدم . وكان هذا المشهد بالنسبة إليهم أشبه بإعلان نهاية عصرهم.

وفي ليالي يثرب ، حين يسكن الضجيج ، وتخفت الأصوات ، كانت الأفكار السوداء تتناسل في عقولهم كالحيات . لكن نور الإيمان كان أسرع انتشارًا من كل سمومهم . كان ينساب في البيوت ، وفي الصدور ، وفي الدعوات الخافتة عند السحر.

وهكذا، لم تكن معركة يثرب سيوفًا ورماحًا ، بل كانت معركة عقول وقلوب . وكان سعد بن معاذ ، ومن على شاكلته ، يمثلون الجبهة الأصعب : جبهة الداخل ، حيث تُحسم المعارك قبل أن تبدأ.

لقد خرج ابن صوريا مهزومًا ، لكن سعد خرج أكثر رسوخًا . خرج وهو يدرك أن الطريق طويل ، وأن الكيد لن يتوقف ، لكن اليقين في صدره كان كالجبل : ثابتًا ، صامتًا ، عصيًّا على الانكسار.

وفي تلك الليلة ، حين عاد سعد إلى بيته ، جلس طويلًا ، يتأمل سقف الغرفة الطينية ، ويتفكر في رحلته من الجاهلية إلى الإسلام. شعر أن كل خطوة خطاها نحو النور كانت تستحق هذا العناء كله . همس لنفسه :

اللهم ثبّت قلبي ، واجعلني جنديًا في صف الحق ، ولو سلبتني الدنيا كلها.

ثم أسلم روحه إلى نومٍ هادئ ، كأن قلبه قد وُضع أخيرًا في مكانه الصحيح.

وهكذا، تكسّرت حِيَل اليهود في يثرب على صخرة الإيمان ، وخرج المسلمون من كل محنة أشد تماسكًا ، وأكثر وعيًا ، وأعمق يقينًا بأن النور ، مهما حورب، لا ينطفئ.

سوق يثرب بين غواية الربا ونور الوحي

في سوق يثرب ، حيث تختلط رائحة التمر المكنوز بندى الصباح ، وتتمازج أصوات الباعة بنداءات القوافل ، كانت الحياة تمضي على إيقاع التجارة ، وتنبض على وقع الذهب والفضة ، كأنها قصيدة طويلة تتناوب فيها القوافي بين الطمع والزهد ، بين الشهوة والإيمان.

هناك ، في دكان صغير متواضع في مظهره ، عظيم في أثره ، كان عبد الرحمن ابن عوف يجلس ، لا كأحد كبار تجار المدينة فحسب ، بل كقلب نابض بعقيدة جديدة ، يتقلب بين يقين الوحي ومخاض الواقع.

كان النهار قد استوى في كبد السماء حين تسلل نعيم بن مسعود بين صفوف السوق ، كأنما يسير على خيط رفيع بين ظاهر السلام وباطن المكيدة . لم يكن وحده في هذا المسعى ، بل كان صدى لخطط محبوكة في دهاليز قينقاع ، حيث اجتمع تجار اليهود على رأي : أن يُدسّ رجلٌ إلى عبد الرحمن بن عوف ، ليلقي في سمعه بذور الشك ، ويختبر صلابة الإيمان الجديد الذي قلب موازين السوق ، وأربك حسابات الربا المتجذّرة في أعماق التجارة القديمة.

وقف نعيم أمام الدكان، متكئًا على عصاه ، وقد لبس ثوبًا يوحي بالتعب والسفر ، لكن عينيه كانتا تشعّان بدهاء لا يخفى على من تمرّس بقراءة الوجوه . حيّا عبد الرحمن بتحية تبدو عادية ، لكنها كانت محمّلة بتردد خفي :

إنك تعني تجّار اليهود في السوق يا ابن عوف ، رماهم محمد فأحسن الرماية !

قالها وهو يبتسم ابتسامة مائلة ، كأنها تحمل في طياتها سخرية مبطّنة وإعجابًا متناقضًا. رفع عبد الرحمن رأسه عن صحيفته ، وتأمله لحظة طويلة ، كأنه يزن الكلمات لا المتكلم.

ضحك عبد الرحمن ضحكة قصيرة ، خرجت من صدره لا من شفتيه ، وقال بنبرة هادئة مطمئنة :

إن لك عندي ثمن ما اشتريت مني من بضاعة اليمن ، فلم لم تأتِ في طلبها إلا اليوم ؟

تنفّس نعيم بعمق ، وكأن سؤاله أيقظ في صدره ذكرى بعيدة :

لعلمي أني أودعت مالي عند خير تاجر جاء إلى يثرب من مكة . يقولون إنك لو تاجرت في التراب لانقلب في يدك ذهبًا نضارًا.

تسللت كلمات الثناء إلى قلب عبد الرحمن ، لكنها لم تفتنه. لقد تعلّم منذ هاجر أن يزن كل مدح بميزان التقوى ، وأن يرى في كل ثناء امتحانًا جديدًا. ابتسم بتواضع، وقال :

ذلك من فضل ربي يا نعيم. اجلس حتى أحصي مالك عندي.

جلس نعيم على بساط وثير ، وأخذ يرمق حركة عبد الرحمن الدقيقة ، أصابعه التي تمرّ على الدراهم كأنها تسبّح ، وعيناه اللتان لا تفارقان الميزان . ثم قال ، وكأنه يلقي طُعمًا في ماء صافٍ :

يقولون إنك كنت تعطي العشرة خمسة عشر.

توقف عبد الرحمن لحظة ، كأن ذكرى الماضي طرقت قلبه فجأة . عاد بذاكرته إلى أيام الجاهلية ، حين كان الربا قانون السوق ، وحين كانت القلوب تتسابق إلى الكسب ولو على حساب الأرواح. قال بصوت خافت:

كان ذلك قبل أن يمكن الله عليّ بالإسلام.

تعني العشرة عشرة فحسب ؟

قالها نعيم في دهشة مصطنعة ، وقد تعمّد أن يرفع حاجبيه كأنما يستنكر.

رفع عبد الرحمن رأسه ، ونظر إليه نظرة عميقة ، نظرة من خبر التحوّل من ظلمات الطمع إلى نور الإيمان:

ماذا جرى لك يا نعيم ؟ أنت تعرف أن هذا ما يفعله كل تاجر مسلم.

هنا ، مال نعيم إلى الأمام قليلًا ، وكأنما يريد أن يزرع في النفس بذرة اضطراب:

ليس كل تجار المسلمين في السوق مثلك ، منهم من يعطي العشرة خمسة عشر، ومنهم من يعطي أكثر من ذلك.

اشتعل الغضب في صدر عبد الرحمن ، لكنه لم يكن غضب الانفعال ، بل غضب الغيرة على حدود الله . نهض من مكانه ، وقال بصوت ارتجّ له الهواء :

كذبت ! هذا هو الربا الذي نهانا عنه رسول الله.

سرت في جسد نعيم رعشة خفية ، لكنه تماسَك ، وقال متعجبًا :

عجبًا ! أحدثك عمّا يحرمكم منه صاحبكم ، فتحمد ربك ؟ تحمد صاحبك ؟

ساد صمت ثقيل ، كأن السوق بأسره توقف عن التنفس . وفي ذلك الصمت ، أخذ عبد الرحمن يغوص في أعماقه ، حيث تختزن الذاكرة صور الهجرة ، والجوع ، والبرد ، والخوف ، ثم صور النور ، حين انفتحت أبواب اليقين ، وحين صارت الدنيا كلها في كفّ الله.

قال بصوت مفعم باليقين :

قد والله اطّلع على قلوب من بعثوا بك من تجار اليهود ، وخشي على المسلمين أن يقعوا فيما حرمه ، فأنزل على قلب رسوله :

بسم الله الرحمن الرحيم :

" يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ". صدق الله العظيم.

ثم أردف ، وقد أضاء وجهه بنور داخلي:

ويدرك شباب المسلمين من تجار يثرب ما يُراد بهم ، فيكفون عن التعامل مع تجار اليهود في سوق قينقاع ، الذي كان مستنقع الربا الفاحش في الجزيرة كلها. وتنزل الآيات البينات تحذّر المسلمين مما يُراد بدينهم وبحياتهم الجديدة :

" الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ". " وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ".

كانت الكلمات تتدفّق من فمه كجدول نور ، تغسل وجوه السامعين ، وتوقظ في النفوس شيئًا نائمًا منذ قرون. أحس نعيم أن الأرض تميد تحت قدميه ، وأن الحيلة التي جاء بها تتلاشى أمام هذا السيل الجارف من اليقين.

في تلك اللحظة، لم يعد السوق سوقًا ، بل صار ساحة صراع بين عالمين : عالم قديم تشبّث بالربا كأنّه قدر لا يُردّ ، وعالم جديد يبني قواعده على العدل والتكافل والزكاة . وكان عبد الرحمن بن عوف يقف في قلب هذا الصراع ، لا كتاجر فحسب ، بل كحارس لبوابة التحوّل.

عاد نعيم يحدّق في وجه عبد الرحمن ، فرأى فيه وجهًا آخر غير الذي عرفه من قبل؛ رأى فيه رجلاً خرج من ضيق النفس إلى سعة الروح ، من حسابات الربح والخسارة إلى ميزان الثواب والعقاب. شعر ، على نحو غامض ، بأن هذه العقيدة الجديدة لا تغيّر السوق فحسب ، بل تعيد صياغة الإنسان من الداخل.

قال، وقد خفّ صوته :

أراك يا ابن عوف قد صرت غير الذي كنت.

ابتسم عبد الرحمن، وقال في هدوء :

بل صرت الذي ينبغي أن أكون.

ثم جلس ، وأخذ يحصي الدراهم ، كأن شيئًا لم يحدث ، لكن في داخله كانت عاصفة من المشاعر : خشية من الله ، وحزن على من لم يدركوا بعد معنى التحرر الحقيقي ، وأمل بأن تمتدّ هذه الآيات إلى كل قلب ، فتخرجه من عبودية المال إلى عبودية الواحد الأحد.

أما نعيم، فنهض متثاقل الخطى ، وقد حمل معه ثمن بضاعته ، لكنه ترك في السوق شيئًا أثقل : تساؤلات حارقة عن جدوى الحيلة أمام صدق الإيمان . سار بين الناس ، وصدى الآيات يتردّد في أذنيه ، كأنها تلاحقه ، وتطارده ، وتدعوه إلى مراجعة الطريق.

وكانت الشمس تميل نحو الغروب ، تلقي بظلال طويلة على أزقة يثرب ، وكأنها ترسم على الأرض خطوطًا فاصلة بين زمنين: زمن الربا الذي يأكل القلوب قبل الأموال ، وزمن جديد يتأسس على العدل ، حيث يصبح السوق مدرسة للأخلاق ، وتتحول التجارة إلى عبادة ، ويغدو الربح الحقيقي هو رضا الله.

وهكذا ، لم يكن ذلك اللقاء مجرد حوار بين تاجرَين ، بل كان لحظة تاريخية كثيفة ، تجلّت فيها فلسفة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية ، وتكشّفت فيها معركة الوعي في قلب المدينة الناشئة ، معركة لا تُحسم بالسيوف ، بل بالكلمات ، ولا تُربح بالذهب، بل بالإيمان.

حين انكسرت الكؤوس وارتجّت القلوب
ملحمة التحوّل في ليل يثرب

في تلك الليلة التي انسكب فيها القمر على أزقة يثرب كحليبٍ فضيٍّ يتسرّب بين الحجارة ، كانت المدينة تمسك بأنفاسها ، كأنها على موعدٍ مع قدرٍ جديد. الريح تمرّ بخفة بين سعف النخيل ، وتداعب نوافذ البيوت الطينية ، فيما القلوب ، هناك في الأعماق ، تخفق بإيقاعٍ لا يعرف السكون. كانت يثرب ، قبل أن تستحيل مدينةً للروح ، ميدان صراعٍ خفيّ بين النور والظلمة ، بين إرادة الإيمان ودهاء المكائد ، بين صفاء النفوس وسُمّ الشهوات المتربّص.

لقد أدرك اليهود ، وقد فشل سلاح المال وسطوته في صرف شبان المسلمين عن محظورات دينهم ، أن بابًا آخر ما زال مفتوحًا ، بابًا أكثر مكرًا وأشد إغواء : باب الخمر ، أمّ الكبائر ، وسيدة الفتن ، ومفتاح الغواية. قالوا في سرّهم :

إذا استعصت علينا قلوبهم بالذهب والفضة ، فلنفتح لهم كؤوس النسيان ، فما من عقلٍ يثبت أمام نشوة السكر ، ولا من قلبٍ يصمد إذا غاب عنه الوعي.

في مساءٍ مواربٍ ، حيث تختلط ألوان الغروب بشيءٍ من حزنٍ دفين ، تصدّى رفاعة بن تابوت لحمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وسيد شباب المهاجرين. كان رفاعة رجلًا يعرف كيف يُلبس كلماته ثوب الودّ ، ويُخفي خلف ابتسامته أنياب الحقد.

ناداه بصوتٍ مشبعٍ بزيف الحنان :

حمزة بن عبد المطلب ؟ سيد شباب المهاجرين ؟ أين أنت يا فتى ؟ ما لنا لا نراك في حصوننا ؟ أيَمنعك محمد من زيارتنا ؟

توقّف حمزة ، وارتسم على وجهه شيءٌ من الدهشة الممزوجة بالحذر . كان يعلم أن الكلمات لا تُقال عبثًا ، وأن في السؤال فخًا خفيًّا. قال بهدوء المؤمن الواثق:

ما منعني رسول الله من هذا ، وإنه ليدعونا إلى موادعتكم بما بيننا وبينكم من حلف.

ارتعشت شفتا رفاعة بابتسامةٍ بدت للوهلة الأولى صادقة ، لكنها في العمق كانت قناعًا لمكرٍ دفين :

ما أسعدني بما تقول ! إذن فأنت ضيفي الليلة.

تردّد حمزة ، ثم قال :

فلنبث الزيارة يا ابن التابوت لليلةٍ أخرى ، فقد أوغل الليل، ولم أنل كفايتي أمس من النوم، وأخشى ألا يرقّني التعب فلا أشهد صلاة الفجر مع رسول الله.

اصطنع رفاعة دهشةً مبالغًا فيها :

تذهب إلى بيتك في ساعة كهذه يا حمزة ؟ لقد قضيت مع محمد صلاة العشاء ، فما يمنعكم من السمر والسهر؟ عتقت لك أجود الخمر ، فتعال ، فإن ابنتي ‘‘فورتينيه ’’لا تكف عن السؤال عنك.

تردّد الاسم في أذن حمزة كوترٍ مرتجف. فورتينيه، تلك الفتاة التي اشتهرت بحسنها ودلالها، كانت فتنةً قائمة بذاتها. قال حمزة ، وقد بدأ الصراع في داخله:

حقًا ؟

أي وحق يهود نقول ، ما أملح حمزة لولا تنسّكه! تعال ، تعال ، أنسَ نُسك ساعةً مع فورتينيه.

في تلك اللحظة، اشتعلت في صدر حمزة معركة صامتة . كان بين قلبين : قلبٍ تعلّق بالنور ، وروحٍ ما زالت تحتفظ بذكريات الجاهلية . رأى في داخله صبيًّا قديمًا يركض خلف اللذة ، ورجلًا جديدًا يشدّه إلى السماء . ثم قال ، وقد غلبه التردّد:

شريطة ألا تقدّم لي خمرًا.

ضحك رفاعة بخبث :

وما عيب الخمر ؟ ما أرى دينكم يحرمها ، إنما منعكم عنها إذا قمتم إلى صلاتكم.

ولكن رسول الله لا يفتأ يحذّرنا منها.

اقترب رفاعة منه وهمس :

لم يبقَ إلا أن يحرمكم ابن أخيك من الخمر ومتعتها ؟ تعال ، تعال.

كان الليل كثيفًا ، والهواء مشبعًا برائحة العنب المعتّق . سار حمزة معه ، وقلبه يتأرجح بين يقينٍ وشك . دخل حصن ابن التابوت ، فاستقبلته الأضواء الخافتة ، والموسيقى الناعمة ، وهمسات الخدم ، وعبق الخمر . جلس ، وتسلّلت إليه الكؤوس في صمتٍ ماكر.

كان في جاهليته صاحب خمر ، عاشقًا للحسن والدلال ، فما لبثت الذكريات أن انبعثت من رمادها ، فشرب حتى غاب وعيه ، وانكسرت هيبة المسلم في عينيه ، وانفرط عقد الوقار من بين أصابعه.

استدرجته فورتينيه وأبوها إلى قول ما لا يقول مسلم ، فضلًا عن عمّ رسول الله. انطلقت الكلمات من فمه مثقلةً بالسكر ، مجروحة بالعقل الغائب . سمعه من كان بالحصن من الخدم ، فتسلّل أحدهم ، وقلبه يخفق بالرعب ، وأسرع بما سمع إلى عمر بن الخطاب.

كان عمر في بيته ، يقيم الليل بين ذكرٍ وتأمّل . طرق الخادم الباب طرقًا يختلط فيه الخوف بالعجلة . ما إن سمع عمر الخبر حتى انتفض واقفًا ، كأن نارًا اشتعلت في صدره. انطلق إلى بيت الرسول ، والليل من حوله يتمزّق تحت وقع خطاه.

يا رسول الله! حمزة في حصن رفاعة بن التابوت ، وقد أفقدته الخمر عقله ، وطفق يقول ما لا يرضي عنه أحد. بل لقد قال لي أحد الخدم إن رفقاءه استدرجوه حتى قال في المسلمين ما لا يُقال.

ساد صمتٌ ثقيل. كانت كلمات عمر كالسكاكين ، تمزّق قلب النبي. نهض سريعًا ، وعلى وجهه مسحة حزنٍ عميق ، واندفع يستنقذ حمزة من أيدي أصحاب إبليس .

كان الطريق إلى الحصن قصيرًا في المسافة، طويلًا في الألم.

وحين عاد حمزة إلى رشده ، ووقف بين يدي رسول الله ، كانت عيناه مغمورتين بالدموع. أحسّ بثقل الذنب يطبق على صدره ، وبالعار يلسع روحه. انحنى رأسه ، وهمس بصوتٍ متهدّج:

يا رسول الله، اغفر لي ، فقد غلبني هواي.

وفي تلك اللحظة الفاصلة ، تنزّلت آيات الله البينات ، تحرّم الخمر تحريمًا قاطعًا ، وتقطع آخر خيطٍ بين المسلم وتلك الكأس الغادرة:

بسم الله الرحمن الرحيم:

[يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون.]

كانت الكلمات كالصاعقة. دوّت في القلوب قبل الآذان ، فاهتزّت لها الأرواح ، وانكسرت الكؤوس في الأيدي قبل أن تلامس الشفاه. خرج المسلمون إلى سكك يثرب وحواريها ، يكسرون الجرار ، ويهرقون الخمر في الطرقات ، حتى سالت الأزقة بسائلٍ أحمرَ قانٍ، كأنه دمُ غوايةٍ أريق ليُعلن ميلاد زمنٍ جديد.

كانت النساء ينظرن من النوافذ بعيونٍ دامعة ، والرجال يقفون في الساحات بصدورٍ مشدودة . كان مشهدًا كونيًا : مدينةٌ تتطهّر ، وأمّةٌ تعلن قطيعتها مع ماضيها ، وتدخل عهد النقاء.

أما في حصن ابن التابوت ، فكان الغضب جارفًا . صرخ رفاعة في أصحابه :

حرّم الربا بالأمس ، واليوم يحرّم الخمر! إنه يغنينا بهذه الحرب الاقتصادية. تبور تجارتنا ، وتذهب أرباحنا من الربا ، ثم تُغلق حاناتنا ويعزف عن معاصرنا شبّان المسلمين !

قال ابن سوريا ، وقد بدت على وجهه علامات الانكسار:

لمن نبيع إذن ؟ ماذا نفعل وكلّنا مرابون وتجار خمور ؟

ساد صمتٌ ثقيل. أدركوا أنهم أمام قوةٍ لا تُقهر: قوة العقيدة حين تسكن القلوب ، وقوة الروح حين تتسلّح باليقين .

لم تكن المسألة تحريم شرابٍ أو إبطال تجارة ، بل كانت ثورة شاملة على منظومة القيم القديمة ، وبناء عالمٍ جديد أساسه الطهر والعدل.

أما حمزة ، فقد دخل في عزلةٍ قصيرة ، يفتّش في أعماقه عن ذاته الضائعة. كان يسمع صدى تلك الليلة في أذنيه ، ويرى صور الكؤوس المنكسرة في مخيّلته . حدّث نفسه طويلًا: كيف لرجلٍ ذاق حلاوة الإيمان أن يضعف أمام نشوةٍ زائلة ؟ كيف غفل عن نور السماء وهو الذي كان يقف تحتها ساجدًا ؟

ثم نهض ذات فجر، وتوضّأ بماءٍ باردٍ ، كأنه يغسل روحه قبل جسده. صلّى ، وبكى ، وتعاهد مع نفسه أن يكون من تلك اللحظة رجلًا جديدًا ، لا تهزّه فتنة ، ولا تزلزله شهوة . شعر أن قلبه قد خفّ، وأن روحه قد تحرّرت من قيدٍ قديم.

في يثرب، بدأت مرحلة جديدة . لم تعد الخمر مجرد شرابٍ محرّم ، بل صارت رمزًا لسقوط عالمٍ وبزوغ آخر. صار الناس يتحدّثون عن تلك الليلة كما يتحدّثون عن فجرٍ كوني ، انقشعت فيه غيوم الجاهلية ، وانبثق نور الهداية.

وهكذا ، بين مكر اليهود وحكمة السماء ، بين ضعف الإنسان وقوة الإيمان ، كُتبت صفحةٌ جديدة في تاريخ الروح. صفحةٌ تقول إن القلب ، مهما تاه، قادرٌ على العودة ، وإن الإنسان ، مهما سقط ، يملك أن ينهض إذا ما استجاب لنداء الحق.

كانت تلك الليلة شاهدًا على أن الكأس قد تُسكر الجسد ، لكنها لا تستطيع أن تُخمد نور الروح ، وأن الشيطان ، مهما أتقن حيله ، يقف عاجزًا أمام كلمةٍ نازلة من السماء ، تقول للناس : **فهل أنتم منتهون ؟**

سوقُ الخيانة
دراما العهد المنقوض في يثرب

في ذلك الصباح الثقيل ، الذي بدا كأنه خرج من رحم نبوءة سوداء ، كانت يثرب تستيقظ على همسٍ خفيٍّ يتسلّل في الأزقة ، كأن الهواء نفسه قد تواطأ مع الغدر . لم تكن المدينة تعلم بعد أن ساعتها المقبلة ستُدقّ على إيقاع الدم ، وأن سوق قينقاع سيغدو مسرحًا لفصلٍ جديد من فصول الصراع الأزلي بين العهد والخيانة ، بين الطمأنينة والرعب ، بين الإنسان حين يسمو والإنسان حين يسقط في قاع نفسه.

لقد بيتوا الغدر كما تُبيَّت الجريمة في أعماق الليل ، حين يكون القلب أجرأ على السقوط ، والعقل أكثر تواطؤًا مع الشيطان . عزموا على نقض العهد الوحيد الذي لم ينالوا مثله على امتداد تاريخهم الطويل ، عهدٌ كان يمكن أن يكون جسرًا إلى سلامٍ دائم ، لكنه في نظرهم قيدٌ ثقيل يحدّ من طموح الهيمنة . كان رفاعة بن التابوت ، بعينيه الضيقتين اللامعتين كمخالب القط ، يقف في ظل حصن قينقاع ، يتأمل المدينة كصيادٍ يتربّص بفريسةٍ مطمئنة.

قال بصوتٍ منخفض ، يكاد يختفي في همهمة الريح :

نفعل في السوق ما يثير ثائرة شبان المسلمين ، ويدفعهم إلى استفزازنا ، فنلقّنهم درسًا لا ينسونه ، ونقول لمحمد : قد غدر أصحابك بنا ، فلا عهد لك في رقابنا منذ الساعة.

ضحك نعيم بن مسعود ، وكان آنذاك حليفًا لقينقاع ، ضحكةً قصيرة خرجت من بين شفتيه كشرارةٍ عابرة ، وقال بإعجابٍ مشوب بالريبة :

في رأسك الخبيث يا رفاعة بن التابوت أمرٌ عظيم... ترى ما هو ؟

اقترب رفاعة خطوة ، وخفض صوته أكثر ، كمن يخشى أن تسمعه الجدران :

سأطلعك عليه إذا ذهبتَ ، يا نعيم ، تطلب أبناء عمومتنا من بني النضير وبني قريظة أن يرسلوا بشبانهم غدًا إلى السوق<

تجهم وجه نعيم ، وحدّق في صاحبه طويلًا ، ثم قال :

لمَ، ويحك ؟

لأننا سنحدث حدثًا يرغم محمدًا على حربنا . فإن رفض التحدي، ذلّ ، وذلّ معه أصحابه.

كان في نبرة رفاعة شيء من نشوةٍ مَرَضية ، نشوة من يرى الخراب قبل أن يقع ، فيتلذذ به سلفًا . أما نعيم ، فقد شعر بانقباضٍ ثقيل يسقط على صدره . لم يكن الرجل وليد البراءة ، لكنه لم يكن أيضًا مولعًا بإشعال الحرائق الكبرى. أصرّ قائلًا :

لا أذهب حتى أعرف على ما عزمت .

اضطر رفاعة إلى كشف بعض الخطة ، دون تفاصيلها الدقيقة . أصغى نعيم ، وارتسمت في ذهنه صور الدم والصراخ والفوضى . لم يقرّ الخطة ، ولم يرفضها علنًا ،

لكنه استنكرها في نفسه ، وغادر يثرب إلى الشام في تجارةٍ له ، تاركًا خلفه تلك البذرة المسمومة التي سرعان ما ستنبت شوكًا.

+

طلع الصباح التالي ، وكانت الشمس تشرق على سوق قينقاع كعادتها ، بلا اكتراث لما يُحاك في الظلال . فتحت الدكاكين أبوابها ، وتعانقت أصوات الباعة مع وقع الأقدام ، واختلطت روائح المعادن المصقولة برائحة الخبز الساخن والجلود الطرية . كان السوق قلب المدينة النابض ، ومرايا نفوس أهلها في آن.

أقبلت امرأة مسلمة ، يلفّها ثوبٌ بسيط ، ويمشي إلى جانبها حياءٌ صامت . كانت تريد شراء أقراط ، وقد اشتهر دكان رفاعة بصناعة هذا الفن الدقيق . دخلت ، فابتسم لها الباعة ابتسامةً زائفة تخفي خلفها نياتٍ سوداء . همس رفاعة في آذان عماله :

لا تدعو هذه المرأة تغادر الدكان حتى تجعلوا منها سخرية السوق كلها.

ارتجف أحدهم وسأله بخوف :

يا أبا سعيد ، إنها مسلمة ، ولا نأمن أن يثور لها بعض شبان المسلمين .

ضحك رفاعة ضحكة ساخرة :

وهل نريد إلا هذا ، ويحك ؟ داعبوها ، غازلوها ، اعرضوا عليها أجمل ما لدينا من أقراط . فإذا انشغلت ، تسلّل أحكمكم عقد طرف ثوبها إلى ظهرها.

تردد الرجل :

إذا قامت، انكشفت وتعرت... لن يرضى المسلمون بهذا .

قال رفاعة ببرودٍ قاتل :

أليس لهذا كلّفتُ شبان قينقاع أن يؤموا السوق وسيوفهم تحت أرديتهم ؟

تمّت الخطة كما أراد . وما إن همّت المرأة بالقيام حتى انكشف ثوبها ، فصرخت صيحة اخترقت قلب السوق ، وألقت بنفسها على الأرض تستر جسدها ، وهي تصيح :

إليّ يا معشر الأوس ! إليّ يا معشر المسلمين!

كان للصراخ وقع الصاعقة . هرع الشبان ، واشتعلت العيون ، وارتفعت السيوف. في لحظات ، سقط ثلاثة من يهود قينقاع قتلى ، وقُتل من المسلمين فتى غِرّ ، لم يعرف من الدنيا سوى بساطتها الأولى.

+

بلغ الخبر رسول الله ، فخرج مسرعًا ومعه أبو بكر وعمر وثلة من كبار الصحابة ، على أمل وأد الفتنة قبل أن تستفحل . دخلوا السوق ، فاستقبلتهم وجوه متجهمة ، وقلوب تتظاهر بالغضب . تحدث النبي عن الدية ، وعن حقن الدماء ، وعن العهد الذي كان بين الفريقين . لكن زعماء قينقاع ، وفي مقدمتهم رفاعة ، واجهوا حديثه بغضبٍ مصطنع.

قال رفاعة ، رافعًا صوته :

أتهددنا يا محمد بالحرب لأنك نلت فرصة من قريش في بدر ؟ وما علم قريش بالحرب ؟ لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لو حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس !

غضب عمر حتى احمرّ وجهه ، و قال :

يا ابن التابوت ، كأنك تدفع الناس إلى الحرب دفعًا.

وأضاف أبو بكر ، بصوتٍ يختلط فيه الحزم بالأسى :

اتق الله يا ابن تابوت ، فإنما هي فعلتك التي حرّشت بين الناس.

لكن رفاعة أصرّ ، و قال ببرود :

لا نقبل الديات. لقد قتلوا منا ثلاثة ، فإما أن يسلمنا محمد ثلاثة من رجاله نختارهم فنقتلهم في السوق على مشهد من الناس جميعًا ، وإما هي الحرب .

ساد صمتٌ ثقيل . نظر عمر إلى النبي ، ثم إلى رفاعة ، و قال :

ويحك يا رفاعة ، والعهد بيننا وبينكم ؟ ما أراك إلا قد بيت هذا الأمر لتنشب الحرب بين الناس .

ابتسم رفاعة ابتسامةً باردة ، و قال :

إذا أراد صاحبكم أن يتقي الحرب ، فليخرج بكم من يثرب .

+

في تلك اللحظة ، كان المشهد يتجاوز الكلمات . كان التاريخ كله يقف خلف هذا الحوار ، يراقب امتحان الأخلاق في زمن الفتنة . كان النبي ينظر إلى القوم بعينٍ يختلط فيها الألم باليقين . لم يكن يريد حربًا ، لكنه لم يكن يقبل ذلًّا ، ولا يسمح أن تُداس كرامة امرأة ، أو يُنقض عهد بلا حساب.

أما رفاعة ، ففي داخله كانت معركة أخرى تدور . كان جزء منه يدرك فداحة ما يصنع ، لكنه كان يدفع هذا الإدراك بعيدًا ، كمن يدفن ضميره حيًّا . كان يرى في الحرب خلاصًا من قيدٍ طال ، وفرصة لإعادة ترتيب ميزان القوة . كان عقله بارعًا في نسج المبررات ، حتى غدا الشر عنده حيلة ذكية لا جريمة.

وفي زوايا السوق ، كانت العيون تترقب ، والقلوب تخفق. المسلمون يرون في الموقف امتحانًا لإيمانهم ، واليهود يرون فيه معركة كرامة مصطنعة . أما المدينة ، فكانت تتنفس بصعوبة ، كأنها تشعر أن أيام السلم توشك أن تنقضي.

+

هكذا بدأت القصة : من همسة في الظلام ، ومن ضحكة خبيثة ، ومن خطة نسجت بخيوط المكر . وهكذا ينقلب التاريخ أحيانًا ، لا بقرارات عظيمة ، بل بحيلة صغيرة ، وبقلبٍ آثر الغدر على الوفاء.

لقد كان سوق قينقاع في ذلك اليوم أكثر من مكانٍ للتجارة ؛ كان مسرحًا للنفس البشرية وهي تُعرّي ذاتها أمام المرآة الكبرى للزمن . وهناك، بين الصراخ والدم والتهديد

، وُلد فصل جديد من فصول الصراع ، فصل سيكتب بمدادٍ من نار ، وسيظل صداه يتردد طويلًا في ذاكرة المدينة ، وفي ضمير الإنسانية جمعاء.

على تخوم اليقين
ملحمة النفس والتاريخ في حصار بني قينقاع

حتى قبل أن يقرر رسول الله ﷺ قبول التحدي ، كان الوحي قد سبق الحدث ، ونزل القرآن الكريم ليصبّ الطمأنينة في قلوب المؤمنين ، وليشدّ أزرهم بوعد النصر ، وكأن السماء كانت تفتح ستائر الغيب لتعلن أن ساعة الفصل قد اقتربت ، وأن موازين التاريخ تميل ببطء ، ولكن بحسم، نحو الحق.

بسم الله الرحمن الرحيم

[قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ]

صدق الله العظيم.

لم تكن الآية مجرد وعدٍ غيبيّ ، بل كانت زلزلة نفسية عنيفة ، تخترق جدران الخوف ، وتقتحم دهاليز التردد في أعماق القلوب . في المدينة المنوّرة ، حيث تتشابك الأرواح وتتصارع الهويات ، كان هذا الوعد بمثابة صاعقة نور ، أضاءت العتمة ، وكشفت زيف القوة التي طالما توهّمها خصوم الدعوة.

وهكذا... كانت الحرب.

ليست حرب سيوف ورماح فحسب ، بل حرب عقول وضمائر ، حرب تحصّن فيها اليهود خلف الجدران ، كما فعلوا عبر تاريخهم الطويل : الانكماش داخل القلاع ، التمترس في الحجر ، الاحتماء بالصمت ، وانتظار أن تذبل عزيمة الخصم. ذلك هو أسلوبهم الأبدي ، وذلك هو سرّ هزائمهم المتكرّرة. وكأنهم يعيدون إنتاج قدرهم، بإرادتهم ، مرة بعد مرة.

امتدّ الحصار أيامًا وليالي ، والشمس كانت تمضي ببطء كأنها تتأمل المشهد ، بينما القمر يعلّق ضوءه البارد على أسوار الحصون . كان الهواء مثقلًا برائحة الترقّب ، وكانت الأنفاس محبوسة بين ضلوع الرجال.

في داخل حصون بني قينقاع ، أخذ القلق ينخر الأرواح كما ينخر السوس الخشب . أدركوا ، بعد طول عناد ، أنهم لا يقوون على مواجهة الهجوم الإسلامي إذا اندفع ، ولا يملكون زاد الصبر الكافي لتحمّل الحصار . عندها فقط ، حين بدأ الخوف يعلو فوق الغطرسة ، طلبوا المفاوضة.

خرج إليهم سعد بن معاذ ، سيد الأوس ، رجل توازن بين الحزم والعدل ، وبين الإيمان والعقل . كان يمشي بخطوات ثابتة ، كأن الأرض نفسها تمهّد له الطريق . في عينيه بريق عزم لا يلين ، وفي قلبه ميزان دقيق لا يميل إلا للحق.

وقف أمامهم، وصوته يتردّد بين الجدران العالية :

اخرجوا من يثرب بأموالكم وأبنائكم ومتاعكم.

ساد الصمت ، كأن الكلمات سقطت حجرًا في بئر عميقة. تبادل القوم نظرات مضطربة ، ثم تقدّم رفاعة ، أحد وجوههم ، بنبرة فيها رجاء مكشوف:

يا أبا عمرة ، نشترط على صاحبكم أن نخرج بأسلحتنا مع ما ذكرت.

ابتسم سعد ابتسامة ساخرة ، لكنها كانت محمّلة بصرامة الإيمان :

ويحكم ! والله إني لا أخشى أن ينزل فيكم قرآن بغير ذلك.

ارتجفت الكلمات في أفواههم . لم يكن يخوّفهم ، بل يضعهم أمام حقيقة كانوا يهربون منها : أن الأمر ليس تفاوضًا بشريًا فحسب ، بل شأن سماوي ، تُكتب سطوره في لوح الغيب قبل أن تتحرّك الألسن.

حاول رفاعة أن يستدرّ عاطفة سعد ، أن ينبش في الذاكرة المشتركة ، في زمن كانت فيه القلوب قبل الإسلام تتجاور دون هذا الحاجز العقدي الصارم :

يا أبا عمرو ، إنك نديم يهود قبل أن يأتيكم محمد.

رفع سعد رأسه ، وفي صوته نبرة مريرة ممزوجة باليقين :

أنا ألين قلب رسول الله ؟ والله لو رأيت منه لينًا لكنت أول من يحرضه عليكم بعد ما كان منكم . أعدّوا أنفسكم للخروج قبل أن يأتي أمر الله ، لا مردّ له.

كانت كلماته كالسيف ، لا يجرح الجسد بقدر ما يقطع الوهم . لم يكن سعد ينتقم ، بل كان ينفّذ عدالة تاريخية ، ويغلق بابًا طالما دخلت منه الفتنة.

وهكذا، تطهّرت المدينة من أول قبائل اليهود : بني قينقاع. خرجوا بأثقالهم ، يجرّون وراءهم بقايا أحلام متكسّرة ، وتركوا خلفهم حصونًا خاوية ، وأبوابًا مخلّعة ، ونوافذ منزوعة الخشب.

+

حين عاد نعيم بن مسعود إلى يثرب ، وقف مشدوهًا أمام مشهد الخراب . لم يكن يصدّق أن تلك القلاع التي طالما بدت منيعة قد تحوّلت إلى أطلال . دخل بيته بخطوات متردّدة ، وقال لزوجته في دهشة :

خلعوا حتى أخشاب النوافذ والأبواب... عجبًا ! وتركهم محمد يفعلون ذلك. والله لو أنهم كانوا قد ظفروا به كما ظفر بهم ، لما تركوا في يثرب مسلمًا واحدًا إلا قتلوه ، ومثّلوا به ، وأهلكوا حرثه ونسله.

صمت قليلًا ، ثم أضاف بصوت خافت ، كأنه يحدّث نفسه :

أحسب أن عهدًا جديدًا يُعلن عن نفسه في يثرب... أ فيكون خيرًا لها أم شرًا عليها ؟ لا أدري.

في تلك اللحظة ، بدأ الصراع الحقيقي في داخل نعيم . لم يكن الصراع بين قبيلتين أو دينين ، بل بين قلب وعقل ، بين ميراث طويل من التقاليد ، وبصيص نور يلوح من بعيد.

كان يمشي في أزقّة المدينة ، فيرى وجوه المسلمين وقد تغيّرت . لم تعد تلك الوجوه القلقة التي كانت تنتظر الفناء، بل وجوهًا واثقة ، هادئة ، كأنها تمشي على أرض تعرف مصيرها. كان يسمع القرآن يتردّد من البيوت ، فتقشعرّ أوصاله دون أن يدري لماذا.

في داخله ، كانت أفكار متناقضة تتصارع. أكان هذا الرجل ، محمد ﷺ ، مجرد قائد سياسي بارع ؟ أم نبيًّا حقًا يحمل رسالة السماء ؟ لماذا ترك أعداءه يخرجون بأموالهم ، وهو القادر على أن يأخذها ؟ ولماذا يزداد أتباعه يقينًا رغم شدّة الابتلاء ؟

جلس ذات ليلة وحيدًا ، يحدّق في السماء. كانت النجوم تلمع كعيون مفتوحة ، كأنها تراقب تردّده . تمتم :

أي طريق هذا الذي يتفتح أمامي ؟ أ إلى الإيمان أم إلى الضياع ؟ أ إلى الجنة أم إلى التيه ؟

تذكّر أيامه القديمة ، حيث كان الإيمان بالنسبة له فكرة غريبة ، أقرب إلى الخرافة . لكنه الآن ، وهو يرى التحوّلات الكبرى في المدينة ، شعر بأن الأرض تميد تحته ، وأن يقينًا جديدًا يتشكّل في أعماقه.

تأرجح نعيم بن مسعود أرجحة عنيفة بين الكفر والإيمان . كان ذلك التأرجح مؤلمًا، كمن يقف على حافة هاوية ، يرى في القاع ظلامًا كثيفًا ، وفي الأفق نورًا بعيدًا ، ولا يدري أيهما أقرب.

كان الحوار الداخلي ينهشه :

ماذا لو كان محمد صادقًا ؟ ماذا لو كان هذا القرآن كلام الله حقًا ؟ أ أبقى أسير تاريخي أم أتحرّر ؟ أ أظل أعبد ما ورثت أم أبحث عمّا يوقظ قلبي ؟

وفي صباح آخر ، بينما كانت الشمس تشقّ ضباب المدينة ، شعر أن قلبه قد حسم أمره . لم يعد يحتمل هذا التمزّق . مضى بخطى ثابتة نحو دار النبي ﷺ . كانت كل خطوة كأنها عبور من عالم إلى آخر ، من ظلمة إلى نور.

وقف على الباب لحظة ، ثم طرق . وحين فتح له ، دخل وهو يحمل في صدره قرارًا لا رجعة فيه . نطق بالشهادتين ، فشعر كأن جبالًا أزيحت عن روحه ، وكأن صدره انفتح على فضاء لا نهاية له.

+

كان هذا التحوّل أكثر من إسلام رجل ؛ كان إعلانًا عن ولادة عقلية جديدة في المدينة . عقلية لا ترى في القوة بطشًا ، ولا في النصر انتقامًا ، بل رسالة ومسؤولية.

ومضت الأيام ، وتتابعت الأحداث ، وتكرّرت المواجهات ، لكن المدينة لم تعد كما كانت . لقد تغيّر نسيجها النفسي والاجتماعي والفلسفي . صار الإيمان هو المحرّك الأعمق ، وصار التاريخ يُكتب من جديد ، لا بأيدي الغالبين وحدهم ، بل بضمائر المؤمنين.

وفي أعماق هذا المشهد ، كانت قصة نعيم بن مسعود تختصر مأساة الإنسان الكبرى : البحث عن الحقيقة وسط الضجيج ، وعن النور وسط العتمة ، وعن الله وسط صخب الدنيا.

وهكذا ، قبل أن تُحسم المعارك في الميدان ، كانت قد حُسمت في القلوب. وقبل أن يُهزم العدو بالسيف ، كان قد انهزم في داخله ، حين فقد يقينه ، وتصدّعت جدرانه النفسية.

ذلك هو السرّ الأكبر في انتصارات الإسلام الأولى : أنه لم يكن ينتصر بالقوة وحدها ، بل بالمعنى. ولم يكن يهزم الجسد فقط ، بل يوقظ الروح.

صار نعيم بن مسعود رجلًا آخر ، يسير في دروب الإيمان ، ويصنع بذكائه وفطنته فصولًا جديدة من التاريخ. فالناس بخواتيمهم ، والقلوب إذا اهتدت ، لا تعود كما كانت أبدًا.

رويدا... حين يقترب القلب من دائرة النور

رويدا... رويدا... كانت الخطى تتهادى في دروب الروح كما تتهادى أقدام السائر في صحراء مترامية ، لا يرى فيها إلا سرابًا ، ولا يسمع سوى صدى أنفاسه ، حتى إذا لاح له في الأفق وميض خافت ، حسبه وهماً ، ثم ما يلبث أن يدرك أنه فجر جديد يتكوّن في أعماقه.

كان نعيم بن مسعود ، الصحابي الجليل الذي لم يكن قد بلغ بعد شاطئ الإيمان ، يسير في تلك الأيام السابقة لغزوة الأحزاب على حدّ سكين داخلي ، مشدودًا بين عالمين: عالم الجاهلية بما فيه من أهواء وتجارات ومصالح وعلاقات متشابكة ، وعالم جديد بدأ يلوح له من بعيد ، عالم الطهر والصدق واليقين.

في تلك الليالي التي تسبق التحولات الكبرى ، كانت زوجته أم سلمة الأشجعية ترقب تغيره بعين امرأة فطنة ، لا تخطئ إشارات الروح ولا تغفل ارتعاشات القلب. لم تكن تلك أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية ، بل امرأة من نساء البادية، عرفت الحياة بقسوتها ، وخبرت الرجال بطبائعهم ، وقرأت في ملامحهم ما لا يُقال.

كانت تقول، وقد استوى الليل على عرشه ، وسكن كل شيء إلا أنفاس الريح:

لم يكن نعيم يقيم في يثرب إقامة دائمة ، ولكنه اتخذ له فيها بيتًا في السنح قرب دار أبي بكر ، ينزل فيه إذا أتى يثرب في تجارة أو شأن . وكان يعشق الترحال عشق العاشق للحرية ، فما رأيت في تلك الأيام من طاف البلاد كما طاف نعيم ، ولا من عرف الناس كما عرفهم. كانت له صداقات في كل مكان ، غير أنه كان يؤثر يهود يثرب بودّه ، ويكثر من زيارتهم في حصونهم ، ويشاركهم مجالس الشراب والأنس. وكان إذا عاد إلى مضاربنا في أرض غطفان يحكي لي عن أخبار يثرب ، وما يلقاه محمد من كيد اليهود ومكرهم.

سألتها وأنا أتابع حديثها بشغف:

أكان ذلك قبل أن تدخلي في الإسلام يا أم سلمة ؟

تنهدت ، كأنها تسترجع زمنًا بعيدًا ، وقالت:

أجل ، فلم نكن في مضارب أشجع وغطفان نعلم عن حقيقة الإسلام إلا ما يتسرب إلينا من نتف الأخبار ، يفيض بها الرجال حين يشاؤون ، ويبخلون علينا بأكثرها. وكان نعيم يشترك في بعض ما يدبّره اليهود لمحمد ، لا بغضًا في الإسلام ولا في رسوله ، ولكن لفرط صداقته بزعيم بني النضير حيي بن أخطب . وكان نعيم في أول أمره يقع في كثير من الدنايا في حصون هؤلاء القوم ، ويتاجر بالربا الفاحش ، ويعبّ من الخمر حتى ينسى ما لا يليق أن ينساه الرجل الكريم من نبل الخصال.

سكتت قليلًا ، ثم تابعت بصوت خافت كأنه يخشى أن يوقظ ذكرى موجعة :

حتى كان ما كان من أمر بني قينقاع ، فأجلاهم الرسول عن يثرب. ثم حاول بنو النضير اغتيال محمد ، وهناك ، عند تلك اللحظة ، أفاق زوجي إلى حقيقة هؤلاء الناس.

تغير وجهها وهي تروي :

عاد يومها مهمومًا ، وقد خيم على قسماته ظل ثقيل ، وقال لي : أحسب يا أم سلمة أنني سأبيع داري في يثرب ولا أدخلها بعد اليوم . لقد خاب ظني في حيي بن أخطب ، بلغ

من عداوته لمحمد أن استدرجه وصاحبيه عمر وأبا بكر إلى حصنه ، ثم دبّر لاغتياله . ولكن الله نجّى محمدًا ومن معه . هذه فعلة لا يفعلها رجل كريم.

قلت له ألومه:

وهؤلاء هم الذين تعاطيهم الود والصداقة ؟

فقال وهو يهز رأسه :

ما أحسبهم يكنّون لأحد صدقًا ولا ودًا ، وقد بتّ من أمرهم في شك مريب.

وهكذا خرج بنو النضير ببغيهم كما خرج بنو قينقاع من قبلهم ، ولم يبق في يثرب من اليهود إلا بنو قريظة . وبعد غيبة طالت شهورًا ، شدّ نعيم رحاله نحو يثرب، كأنما شيء خفي يدعوه إليها.

دخل حصون بني قريظة ، فاستقبله سيدهم كعب بن أسد، وقال مستنكرًا:

ما بالك قد قلوتنا يا أبا سلمة ؟

ابتسم نعيم ابتسامة باهتة ، و قال :

طال غيابي عن يثرب في تجارة لي بجزيرة قبرص. كيف حالكم مع محمد ؟

على خير ما نرجو ويرجو محمد.

اتسعت عينا نعيم دهشة ، و قال :

عجبًا يا كعب ! في آخر لقاء بيننا ، وكان حيي بن أخطب حاضرًا ، عاهدته أن تحاربوا مع بني النضير إذا حاربوا ، وتخرجوا معهم إن أُخرجوا. فلم حاربتم ولا خرجتم ؟

خفض كعب رأسه لحظة ، ثم قال :

كانت أماني بما لا يكون يا نعيم . إن بيننا وبين محمد عهدًا قديمًا ، فكيف نخلفه ؟

ضحك نعيم ساخرًا :

وكيف تذكرون العهد الآن ، وقد كنتم تحرّضون بني النضير على تحدي محمد ؟!

تغير وجه كعب ، وقال بحدة ممزوجة بالخوف :

لا تسخر منا يا نعيم . أنت تعلم أنه لا طاقة لنا بمحمد بعد أن هابته قريش ، ودخل في الإسلام الكثيرون من كل قبيلة عربية ، حتى من قومك غطفان وأشجع.

وكأنكم تنتظرون نهزة من محمد ؟!

ويحك يا نعيم ! لا تقل هذا خارج حصوننا فيستريب المسلمون في صداقتنا . لقد أرسلنا إلى محمد بعد خروج بني النضير نوثّق العهد القديم.

مبالغة في خداع محمد ، أم فرط خوف من مصير قينقاع والنضير ؟

ضحك كعب مراوغًا :

للأمرين معًا. أنت أعلم الناس بأمرنا وأقرب العرب إلى قلوبنا ، فاكتم عنا ما تسمع وتعرف.

خرج نعيم من عندهم ، وقلبه يضطرب . كانت الكلمات تتصارع في داخله: العهد ، الخيانة ، الصداقة ، الغدر ، محمد... محمد... هذا الاسم الذي صار يوقظ في أعماقه أسئلة لا تنتهي.

وفي تلك الليلة ، جلس وحيدًا في بيته بالسنح ، والنار أمامه تخبو وتشتعل ، كما يخبو ويشتعل صدره . أخذ يحدّث نفسه :

أي طريق أسلك ؟ إلى أين أمضي ؟ أ أنا مع هؤلاء الذين لا يعرفون للعهد حرمة ، ولا للصدق وزنًا ؟ أم مع رجل يجتمع حوله الصادقـون ، ويخرج من عنده الناس أكثر نقاء ؟ .

كان يسمع في ذاكرته صوت محمد ، حين التقاه غير مرة في الأسواق والطرقات ، هادئًا ، واثقًا ، كأنه يستند إلى يقين لا يتزعزع . كان ذلك الصوت يوقظ في قلبه شيئًا طال سباته.

مرت الأيام ، والأحداث تتسارع. تحزّبت قريش وغطفان وبنو قريظة وسائر الأحزاب ، وبدت المدينة كأنها تقف على شفا هاوية. وهناك ، في ذروة هذا الإعصار ، كان نعيم يقف في مفترق الطرق ، وحده، بين معسكرين ، بين ماضٍ يأبى أن يرحل ، ومستقبل يلحّ أن يولد.

في ليلة عاصفة، خرج من خيمته ، وقد حسم أمره. كانت النجوم معلقة في السماء كعيون تترقب ، وكان الهواء يصفع وجهه كأنه يذكّره بثقل القرار . سار حتى بلغ معسكر المسلمين ، ودخل على رسول الله.

وقف بين يديه ، وقد سقطت عنه أقنعة السنين ، وقال بصوت متهدج:

يا محمد، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله.

لم يكن في المشهد بهرجة ولا ضجيج ، بل سكون عميق ، كسكون البحر قبل الفجر . ابتسم النبي ابتسامة ملؤها الطمأنينة ، و قال :

مرحبًا بك يا نعيم.

في تلك اللحظة، شعر نعيم كأن جبلًا كان على صدره فانزاح . لم يكن الإسلام عنده مجرد انتقال من معسكر إلى معسكر ، بل كان انقلابًا داخليًا ، ولادة جديدة ، تحررًا من ثقل طويل.

ثم قال :

يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت.

فقال النبي :

إنما أنت رجل واحد ، فخذّل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة.

خرج نعيم ، وقد صار قلبه يقظًا كالسيف ، وراح ينسج بخيوط الذكاء شبكة من الخداع المشروع ، فتسلل إلى بني قريظة ، وأوقد في صدورهم نار الشك في قريش وغطفان ، ثم مضى إلى قريش وغطفان ، فأشعل فيهم الخوف من بني قريظة. وهكذا ، في أيام معدودة ، تفكك حلف الأحزاب ، وانقلبت جموعهم إلى ريح عاتية تذرُو بعضها بعضًا.

وفي تلك الليالي، كان نعيم يعود إلى خيمته ، فيجلس وحيدًا ، يراجع ذاته . كان يقول في سره :

ما أعجب هذا النور ! كيف يبدد ظلمات السنين في لحظة ! كيف يجعل القلب يرى ما كان عنه غافلًا ! .

تذكّر أيام الخمر والربا، فاستحيا من نفسه . تذكّر صداقاته القديمة ، فترحّم على ما مضى. تذكّر كلماته القاسية في حق محمد ، فبكى. لقد صار يرى العالم بعين أخرى ، عينٍ لا تخدعها المظاهر ، ولا تستهويها المصالح العابرة.

أما أم سلمة ، فقد كانت تنتظره في مضارب أشجع ، يسبقها إليه حدس المرأة ، وكأن قلبها كان يعلم أن زوجها لم يعد كما كان . فلما عاد ، رأت في وجهه صفاء لم تعهده ، ووقارًا جديدً ا، فسألته :

ما بالك يا نعيم ؟ كأنك خرجت من رحم جديد ؟

ابتسم و قال :

بل خرجت من ظلمة إلى نور.

جلس إليها طويلًا ، يحدثها عن محمد ، وعن الإسلام ، وعن السلام الذي سكن قلبه. وكانت تستمع، والدموع تلمع في عينيها ، حتى قالت :

دلني على هذا الطريق.

وهكذا ، دخل النور بيت نعيم ، كما دخل قلبه ، وتحوّل الرجل الذي كان تائهًا بين المصالح إلى إنسان يبحث عن المعنى ، وعن الصدق ، وعن الله.

وهنا، تتبدى عظمة التحول : ليس في تبديل الاسم أو الوجهة ، بل في انقلاب الداخل . لقد صار نعيم بن مسعود مثالًا حيًا على أن أعنف الصراعات ليست تلك التي تُخاض بالسيوف ، بل تلك التي تدور في أعماق الإنسان ، بين شهواته وضميره ، بين خوفه ورجائه ، بين ماضيه ومستقبله.

وفي ذلك كله ، ظل صدى تلك الخطوات الأولى يتردد: رويدا... رويدا... حتى اكتمل الطريق ، وبلغ القلب دائرة الإيمان.

+

اعترافات أم سلمة وسقوط الأقنعة في ليل الأحزاب

وَتَقولُ أُمُّ سَلَمَة:

ثم جاءني زوجي، أبو سلمة نعيم بن مسعود ، ذات مساءٍ مثقل الخطى ، متشظّي الروح ، كأنما يحمل على كتفيه أعباء أمةٍ بأسرها. دخل عليّ ، ولم تكن في ملامحه تلك الطمأنينة التي ألفتها ، بل كان وجهه غارقًا في ظلال قلقٍ عميق ، يضطرب فيه القلب قبل أن تنطق به الشفاه . جلس صامتًا برهة ، ثم أخذ يتمتم كأنما يناجي نفسه أو يخاطب أرواحًا غائبة:

هؤلاء الأخباث...

رفعت بصري إليه ، وقد سرت في جسدي قشعريرة مبهمة ، وقلت بصوتٍ حاولت أن أجعله هادئًا:

من تعني يا نعيم؟

تنهد طويلًا، كأنه يفرغ في زفيره هموم أيامٍ ولياليٍ ، ثم قال:

تعرفين أن حيّي بن أخطب لم يذهب مع قومه إلى الشام ، بل بقي في خيبر ، ينسج المؤامرات في الظل ، ويتربص بمحمد وأصحابه . لقد ذهب إلى قريش ، يحرّضهم على غزو يثرب ، ويمني أبا سفيان بتجارة المدينة ، وبخيراتها من الزرع والنخيل ، وبمائها الوفير.

سكت قليلًا، ثم عاد يقول بنبرةٍ خافتة لكنها محمّلة بالخطر:

يا أم سلمة ، في أرضنا حركة لا أعهدها. كأنما يستعد قومنا من غطفان للحرب.

شعرت بأن قلبي يهوي في صدري ، كأن نبوءة مظلمة تتشكل أمام عينيّ، فقلت:

أحقًا ما تقول ؟

قال وهو يهز رأسه:

أجل ، ويح حيّي بن أخطب. استطاع أن يحرّض عيينة بن حصن ، زعيم غطفان، على غزو المدينة ، كما حرّض قريشًا وأشجع . إنهم يجمعون الأحزاب ، ويخططون لحصار محمد وأصحابه حصارًا لم تعرفه العرب من قبل.

ثم صمت، وبدا كأنه يغوص في أعماقه، يحاول أن يستخرج من قلبه جوابًا لم يولد بعد. فقلت ، وأنا أشعر بأن الكلمات تنبثق من قلقي لا من لساني:

ماذا لو حاصروا المسلمين في يثرب ، يا نعيم ؟ إذا خرج عيينة لحرب محمد ومن معه ، أفنكون مع الخارجين ؟

نظر إليّ نظرة طويلة ، رأيت فيها صراعًا عظيمًا بين ميراث القبيلة ونور الحقيقة ، ثم قال بحزمٍ اختلط فيه الألم بالعزم :

لا والله، لا أخرج مع هؤلاء الباغين أبدًا . ولكن أخبريني ، وما الذي يشغلك من أمر محمد يا أم سلمة ؟

تنفست بعمق ، وشعرت بأنني أقف على حافة اعترافٍ مصيري ، فقلت بصوتٍ يوشك أن يرتجف :

يا نعيم ، يأتي إلى قلبي أن محمدًا على حق ، وأن هؤلاء جميعًا على الباطل. ألا يأتي هذا إلى قلبك يا نعيم ؟

طال صمته ، حتى حسبت أن الزمن قد توقف بيننا . ثم قال في فتورٍ يفضح اضطراب روحه:

لست أدري يا أم سلمة... لست أدري.

+

كانت تلك الليلة من أثقل الليالي التي مرّت عليّ. لم يغمض لي جفن ، وكنت أرى في عتمة الغرفة أشباح الغد تتراقص ، وتسمع أذنيّ وقع أقدام الجيوش القادمة من بعيد. كنت أسترجع كلمات نعيم ، وأقلبها في قلبي كما يُقلّب المرء جمرةً ملتهبة ، أبحث فيها عن يقين يطفئ هذا القلق.

في أعماقي، كان نور خفيّ يتوهج كلما ذُكر اسم محمد. لم أره قط ، لكن أخباره كانت تصل إلينا ، فتوقظ في النفس إحساسًا غريبًا بالصدق ، كأن صوته يلامس الفطرة مباشرة ، بلا حواجز ولا وسائط. كنت أسمع عن عدله ، عن حلمه ، عن رحمته بالضعفاء ، عن تلك الدعوة التي لا تقوم على السيف ، بل على الكلمة والنور.

قلت في نفسي : أيعقل أن يجتمع هذا الكم من البغضاء ضده إلا لأنه جاء بما يهزّ عروش الطغيان ؟

+

ومضت الأيام سريعة ، تتلاحق كنبضات قلبٍ مذعور. وبدأت الأخبار تتواتر: قريش خرجت بجموعها ، وغطفان أقبلت بسيوفها ، وأشجع تتهيأ ، ويهود بني النضير وبني قريظة يحرّكون الخيوط في الخفاء . المدينة مهددة بحصار لم تعرفه من قبل ، والمسلمون يستعدون بما استطاعوا من قوة.

وفي تلك اللحظات ، شاع خبر الخندق.

خندقٌ يحفره المسلمون حول المدينة ، فكرة لم تألفها العرب ، ولا خطرت لهم على بال. كان ذلك تدبيرًا غير مألوف ، لكنه يحمل في طياته عبقرية الدفاع والصبر. وكنت أرى في هذا الخندق رمزًا لما يفصل بين عالمين : عالمٍ قديمٍ غارقٍ في العصبية والدم، وعالمٍ جديدٍ يتشكل على قيم العدل والإيمان.

كان نعيم يعود كل مساء محمّلًا بأخبار المعسكرات ، وفي عينيه قلق لم أعرف له مثيلًا. صار صمته أطول ، وحديثه أقل ، كأنما داخله حرب أخرى لا تقل ضراوة عن الحرب التي تستعد لها القبائل.

ذات ليلة ، قال لي :

يا أم سلمة ، إنني أرى الباطل مجتمعًا على محمد ، وأرى الحق وحيدًا معه. لكنني أخشى أن أكون كمن يقف بين نارين ، فلا يحتمي من هذه ولا ينجو من تلك.

قلت له ، وأنا أضع يدي على يده :

ربما كان الوقوف مع الحق وحده هو النجاة ، وإن بدا طريقه موحشًا.

نظر إليّ ، وفي عينيه بريق غريب :

أتظنين ؟

بل أوقن.

+

وجاء يوم الأحزاب.

كان الجو مكفهرًا ، والريح تعصف ، كأن السماء نفسها تشارك في هذا الامتحان العظيم. احتشدت الجموع حول المدينة ، وأحاطوا بها من كل صوب، فلم يبق للمسلمين إلا ذلك الخندق ، يقفون خلفه بثباتٍ يكاد يكون إعجازيًا.

من بعيد ، كنا نسمع صليل السيوف ، وصهيل الخيل ، وصيحات التحدي . وكانت قلوبنا تتضرع قبل ألسنتنا ، أن يحفظ الله من في المدينة من هلاك محقق.

وفي تلك الأيام العصيبة ، رأيت نعيمًا يتحول شيئًا فشيئًا . صار أقرب إلى الصمت العميق ، لكن صمته لم يعد خاليًا ، بل كان ممتلئًا بفكرةٍ تتخمر في أعماقه. كان يمشي في الخيمة ذهابًا وإيابًا ، وكأنه يرسم في الهواء خريطة خلاص.

ثم فجأة، قال لي في إحدى الليالي:

يا أم سلمة ، لقد عزمت.

نظرت إليه بقلق:

على ماذا ؟

على أن أذهب إلى محمد.

شهقت دون صوت:

أتدري ما تقول ؟

أدري. ولكنني لم أعد أحتمل الوقوف على الحياد. إن الحق يناديني ، ولا أريد أن أكون من الصم البكم.

رأيت في وجهه تلك اللحظة نور قرارٍ شجاع ، فقلت:

إن كان قلبك قد اطمأن، فاذهب، والله معك.

+

لم أعلم ما دار بينه وبين محمد ، لكنني رأيت أثر ذلك اللقاء في وجهه حين عاد. كان وجهًا جديدًا ، يشع سكينة وثقة ، كأنما انقشعت عنه غشاوة طويلة.

قال لي:

يا أم سلمة، لقد أسلمت.

فانهمرت دموعي ، لا خوفًا ولا جزعًا ، بل فرحًا وانعتاقًا.

+

ثم بدأ دور نعيم في تلك المعركة ، دورًا لا يُقاس بالسيوف ولا بالعدد. تسلل بين المعسكرات ، يوهم هؤلاء ، ويثير الشك في أولئك ، حتى دبّ الخلاف بين قريش وغطفان وبني قريظة. صار كل فريق يتوجس من الآخر ، وتفككت الأحزاب قبل أن تخوض المعركة الفاصلة.

وكانت الريح تأتي كجندي من جنود الله ، تقلب خيامهم ، وتطفئ نيرانهم ، وتبعثر صفوفهم. حتى أصبح حصار المدينة عبئًا لا يُحتمل ، فانقلب الغزاة على أعقابهم خاسئين.

+

حين انقشع الغبار ، أدركت أنني شهدت ميلاد زمن جديد . زمن لا تحسمه الكثرة ، بل الصدق . لا تصنعه السيوف وحدها ، بل القلوب المؤمنة.

كنت أتأمل نعيمًا وهو يصلي ، وأقول في نفسي : كم من الأرواح تضل لأنها تخشى مواجهة حقيقتها ؟ وكم من القلوب تنجو لأنها امتلكت شجاعة السؤال ؟

لقد كان غزو الأحزاب امتحانًا للإنسان في أعمق أعماقه ، امتحانًا للنية ، واليقين ، والاختيار. وفي قلب تلك العاصفة ، اكتشف نعيم نفسه ، واكتشفت أنا أن الإيمان ليس مجرد تصديق ، بل رحلة طويلة من القلق ، والبحث ، والانكسار ، ثم النهوض.

وهكذا ، خلف الخندق ، لم تكن هناك حرب سيوف فقط ، بل حرب عقول وقلوب ، حرب على الخوف ، وعلى العصبية ، وعلى ميراث الجاهلية.

وهناك، في ذلك الليل الطويل ، ولد فجر جديد، ما زال نوره يمتد عبر القرون.

بين الخندق والحصون
حوار الخوف واليقين في ليلة المصير

في تلك الليالي الملبّدة بالقلق ، حين كانت الريح تعصف بالخيام ، وحين كان الخندق يفصل بين عالمين: عالم الإيمان المحاصر ، وعالم الشرك المتربّص ، كان الزمن يبدو كأنه يئنّ تحت وطأة الانتظار. لم تكن المدينة يومئذٍ مجرد بقعة جغرافية ، بل كانت قلباً نابضاً بالخوف والرجاء ، تتنازع فيه الأصوات ، وتتصارع فيه النوايا ، وتتشابك فيه الأقدار.

كان النبي ﷺ واقفاً على حافة الخندق ، ينظر إلى الأفق البعيد بعينين تتوهجان باليقين ، فيما يثقل صدره عبء أمة كاملة . لم يكن الخطر أمامهم فحسب ، بل كان خلفهم أيضاً. كانت يهود بني قريظة ، القاطنون في حصونهم الشامخة جنوب المدينة ، أشبه بغمامة سوداء تتلبّد في سماء الثقة. أكانوا على العهد ؟ أم أن ريح الغدر بدأت تدبّ في قلوبهم ؟

في تلك اللحظة ، استدعى النبي صاحبه سعد بن معاذ ، الرجل الذي كانت قامته أشبه براية ، وصوته كالرعد ، وقلبه كالصخر حين يتعلق الأمر بالحق. قال له بنبرة هادئة تخفي قلقاً عميقاً:

اذهب يا سعد إلى حصن كعب بن أسد ، وانظر هل لا يزال القوم على عهدهم ، أم أن في صدورهم أمراً آخر.

انطلق سعد ، وخطواته تشق ظلام الطريق ، وكل حجر يئنّ تحت وطأة السؤال. كان يعلم أن ذهابه ليس رحلة استطلاع فحسب ، بل هو عبور في منطقة رمادية بين الأمل و الخيانة.

وقف أمام حصن كعب بن أسد ، ذلك البناء الحجري المنيع ، الذي طالما مثّل حصناً للعهود والمواثيق . طرق الباب ، فخرج إليه كعب بوجه جامد لا يشي بشيء. بادره سعد بالتحية ، ثم قال بوضوح:

جئتك لأطمئن : هل أنتم على عهدكم مع رسول الله ؟

ضحك كعب ضحكة ساخرة ، كانت كحدّ السكين في صمت الليل ، و قال :

عهداً ؟ قل لصاحبك: لا عهد بيننا ولا عقد.

ارتجف قلب سعد ، لكنه تماسَك ، كأنما شدّ أعصابه بحبل من صبر. حاول أن يستدرك ، أن يستفهم ، أن يفتح نافذة في جدار الصدّ ، غير أن كعب أغلق كل الأبواب بكلمات مقتضبة وقاطعة . عاد سعد أدراجه ، يحمل في صدره ثقل الحقيقة ، وفي عينيه ظلّ خيبة كبرى.

وحين بلغ النبي ، وأخبره بما سمع ، ساد صمت عميق ، كأن المدينة كلها حبست أنفاسها. أدرك المسلمون أن الخطر لم يعد شبهة ، بل حقيقة ماثلة. صاروا محاصرين من الأمام بالخندق ، ومن الخلف بحصون اليهود. بات الليل أطول ، والنهار أقسى ، وصار الخوف مقيماً في القلوب ، لا يبرحها.

أرسل النبي ثلة من المسلمين لحماية البيوت القريبة من حصون اليهود ، خشية أن ينقضّوا على النساء والأطفال كما تنقض الذئاب على شياه ضلّ عنها الراعي . كانت تلك الدور تضم أرواحاً بريئة ، وأجساداً واهنة ، وأحلاماً صغيرة لم تعرف بعد معنى الحرب. هناك، كان الحراس يقفون في العتمة ، عيونهم ساهرة ، وقلوبهم معلّقة بالسماء.

وفي تلك الأثناء، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه عائداً من داره في السنح ، متقلداً سيفه ، متوشحاً ثياب المحارب. كان وجهه يشعّ وقاراً ، وفي خطواته حزم العارف بأن ساعة الفصل قد اقتربت. وبينما هو في طريقه ، لاح له ظلّ رجل يقترب بخطى مترددة. كان نعيم بن مسعود ، المعروف بصلته الوثيقة بيهود قريظة ، وصداقة قديمة نسجتها المصالح والسنون.

ما إن رآه أبو بكر حتى أعرض عنه ، كأنما سدّ أذنيه عن نداء محتمل. لم يكن في قلبه متسع للشك ، ولا في وقته فسحة للمجاملة. لكنه فوجئ بنعيم يقف في طريقه ، رافعاً صوته:

يا أبا بكر، لا تعرض عني، فقد هداني الله إلى الإسلام. صدقني، يا أبا بكر.

توقف الصديق ، واستدار ببطء. كان يعرف الصدق في نبرات نعيم ، ويعرف ملامح التحول حين تزور القلوب. تأمله لحظات ، كأنما يقرأ في عينيه تاريخاً كاملاً من التيه والبحث. قال بهدوء :

ما عهدناك كاذباً يا نعيم ، ولكنك بالغت يوماً في إيذائنا .

انخفض رأس نعيم ، وتنهّد تنهيدة طويلة ، ثم قال :

ولكن الإسلام يجبّ ما قبله. قد تبت إلى ربي ، والله غفور رحيم.

كان في صوته رجاء صادق ، وفي كلماته انكسار جميل. أحسّ أبو بكر أن أمامه روحاً تولد من جديد ، فاقترب منه خطوة ، وقال :

وما يمنعك أن تذهب إلى رسول الله، فتعلن إسلامك على الملأ ؟ إن في ذلك كسراً لشوكة اليهود في هذا الوقت العصيب.

رفع نعيم رأسه ، وفي عينيه بريق فكرة تتشكّل :

أحسب أن في كتمان إسلامي ما يعينني على أن أنصر الله ورسوله في هذا الموقف«.

وكيف؟

إن قومي لا يعلمون بإسلامي ، ولو أمرني رسول الله، لخذّلت اليهود عنكم. خذني إليه بحيث لا يراني أحد.

كانت تلك لحظة حاسمة ، حيث يلتقي الذكاء بالإيمان ، والحيلة بالصدق. قاده أبو بكر في طرق جانبية حتى بلغا دار النبي ، حيث شهد نعيم شهادة الحق ، ووقف بين يدي رسول الله ﷺ قائلاً :

يا رسول الله، مرني بما شئت ، فإني قادر بعون الله أن أصنع للمسلمين شيئاً.

نظر إليه النبي نظرة عميقة ، كأنما يغوص في أعماق روحه ، ثم قال :

إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة.

خرج نعيم من عنده ، وقلبه يخفق بخليط من الرهبة والعزم. كان يعلم أنه يمشي على حدّ السيف ، وأن كل خطوة قد تكون الأخيرة ، لكن الإيمان كان يدفعه إلى الأمام ، كريح تدفع سفينة وحيدة في بحر هائج.

بدأ مهمته بزيارة بني قريظة . دخل عليهم بثقة الصديق القديم ، وابتسامة المطمئن ، وقال لهم في لهجة المشفق:

يا معشر اليهود ، قد عرفتم ودي لكم ونصحي. إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، هذه بلادكم ، وفيها نساؤكم وأموالكم ، فإن رأوا فرصة للنجاة تركوكم لمصيركم. فخذوا منهم رهائن تضمنون بها وفاءهم.

تبادل القوم النظرات ، وسرت في قلوبهم بذرة الشك.

ثم مضى إلى قريش ، وقال لهم :

إن بني قريظة قد ندموا ، وهم يطلبون من محمد أن يعطوه منكم رهائن ليقتلوهم تقرّباً إليه. فإياكم أن تعطوهم أحداً.

ثم إلى غطفان ، فكرّر القول ذاته ، حتى صار الشك ناراً تتأجج في الصدور ، وصار كل فريق يتوجس من الآخر.

وهكذا ، في صمت الليل ، وفي دهاليز النفس البشرية ، تشكّلت خديعة أنقذت أمة ، وبدّدت حصاراً ، وقلبت موازين القوى.

+

في تلك الليلة ، جلس النبي ﷺ في محرابه ، يناجي ربه ، وقلبه مطمئن أن الله لا يخذل عباده الصادقين. كانت السماء ملبّدة بالغيوم ، لكن خلف السحاب كان نور الوعد يتوهج. وفي الخنادق ، كان المسلمون يحفرون الأمل بأيديهم المرتجفة ، ويسقونه بعرقهم ، ويحيطونه بدعائهم.

أما أبو بكر، فكان يقف عند طرف المعسكر، يحدّق في الأفق ، يتأمل خيوط الفجر الأولى. كان يشعر أن شيئاً عظيماً يُنسج في الخفاء ، وأن الله يدبّر أمراً سيغيّر وجه التاريخ.

وفي حصون اليهود ، كان الاضطراب يعصف بالقلوب ، وتتهاوى الثقة حجراً بعد حجر. صار كل وعد موضع شك ، وكل كلمة موضع ريبة. وهكذا ، قبل أن تُسحب السيوف من أغمادها ، وقبل أن تُراق الدماء ، كانت الحرب النفسية قد فعلت فعلها ، وألقت بظلال الهزيمة في قلوب المتحالفين.

+

لم تكن تلك مجرد واقعة عسكرية ، بل كانت درساً عميقاً في فهم النفس البشرية ، وفي إدراك أن النصر لا يولد دائماً من حدّ السيوف ، بل من ذكاء القلوب ، وصفاء النيات ، وحسن التوكل.

كانت المدينة في تلك الأيام مختبراً للإنسان : فيها المؤمن الصابر ، والمتردد القلق ، والمنافق المتربص ، والكافر المتغطرس . وفي قلب هذا الخليط ، كان النبي ﷺ يقود أمة بأخلاقه قبل سلاحه ، وبحكمته قبل قوته.

وفي أعماق نعيم بن مسعود ، كانت تدور معركة أخرى ، معركة مع ماضيه ، مع خوفه ، مع صورته القديمة في أعين الناس. لكنه مضى ، غير ملتفت إلى الوراء ، كمن يحرق السفن خلفه ، ليجعل من الرجوع مستحيلاً.

وهكذا، في تلك الأيام العصيبة ، كُتبت صفحة من أعظم صفحات التاريخ : صفحة تقول إن الإيمان إذا استقر في القلب ، صنع من الفرد أمة ، ومن الكلمة سلاحاً ، ومن الصدق معجزة.

+

وبقيت المدينة ، رغم الجراح والحصار ، واقفة ، تتحدى الريح ، وتستقبل الفجر كل يوم بقلب جديد ، حتى أذن الله بانقشاع الغمة ، وانسحاب الأحزاب ، وسقوط رهبة الحصون.

وكان ذلك درساً لا ينسى : أن الله إذا أراد نصرة قوم ، هيأ لهم من حيث لا يحتسبون ، وأن في دهاليز القدر دائماً مفاجآت ، لا يراها إلا من أبصر بعين الإيمان ، و سار على درب اليقين.

في دهاليز الخديعة العظمى

نعيم بن مسعود بين دهاء السياسة وصراع الضمير في حصار الخندق

كانت السماء يومئذٍ ملبدة بغيوم ثقيلة ، كأنها مرآة لما يعتمر صدور الرجال من قلق واضطراب. الريح تعوي حول حصون بني قريظة ، وتصطدم بجدرانها الصماء فتردّ الصدى نواحًا خافتًا، أشبه ببكاء الأرض على مصيرها المجهول . وكان نعيم بن مسعود ، سيد غطفان ، يسير بخطوات محسوبة نحو حصن كعب بن أسد ، تتنازعه الأفكار كما تتنازع الرياح أوراق الخريف اليابسة.

في صدره معركة صامتة ، وفي عقله دوامة لا تهدأ . لقد أسلم قلبه سرًّا ، واطمأن فؤاده إلى نور جديد ، لكنه ما زال يسير بين قومه في هيئة من لم يغيّر عقيدته . كان يحمل في داخله سرًّا أثقل من الجبال ، ويعرف أن خطوة واحدة خاطئة قد تودي بحياته وتبدد أثر مهمته . ومع ذلك، مضى ، لأن التاريخ لا يُصنع بالسلامة وحدها ، بل بالمجازفة الحكيمة.

+

استقبله كعب بن أسد ، سيد بني قريظة ، استقبال الصديق القديم ، ففرشت له المجالس ، وأوقدت المشاعل ، وسُقي من أفخر الشراب . غير أن الابتسامة التي علت شفتي كعب لم تكن سوى قناع يخفي تحته شماتة دفينة وحقدًا دفينًا.

قال كعب، وهو يضحك ضحكة ساخرة :

أعجب يا نعيم ، كيف خطرت فكرة حفر الخندق في رؤوس المسلمين ؟ تلك خدعة لم تكن العرب تعرفها ، ولولا الخندق لاستأصلت الأحزاب محمدًا وأصحابه عن آخرهم.

كان صوته يحمل نبرة احتقار ، كأنما يتحدث عن قومٍ لا قيمة لهم. أما نعيم ، فقد ابتلع غصته ، وتظاهر بالدهشة ، وقال بنبرة هادئة :

عسى ألا تدخل في هذا الأمر يا ابن أسد ، فيصيبك منه سوء .

تقلصت ملامح كعب في دهشة ممزوجة بالاستنكار :

سوء ؟ بل الخير كل الخير ! لقد عزمت أن أنقض ما بيني وبين محمد من عهد. وما إن يهاجم أبو سفيان ومن معه الخندق من أضيق نقطة حتى نخرج نحن من حصوننا في ظهور المسلمين، فنحصرهم بيننا.

كان كعب يتكلم بحماسة المنتصر قبل النصر ، والغرور يفيض من عينيه. أما نعيم فكان يصغي ، لكن عقله كان يعمل كرحى لا تهدأ. لقد أدرك أن ساعة الخديعة الكبرى قد حانت.

قال نعيم مترددًا ، كمن يستدرج :

أعجب لك ، وأنت من أنت ، أأمنتم لأبي سفيان وعيينة بن حصن ؟

تسللت رعشة خفية إلى صوت كعب :

تعني ماذا يا نعيم؟

اصطنع نعيم التهرب ، وأطرق رأسه لحظة ، ثم قال :

ما لي أنا ولهذا يا ابن أسد . إذا نصحت لكم قلت: هذا رجل غطفاني لا يخون قومه من غطفان .

قاطعه كعب في لهفة :

لا وحق يهود ، ما أقول هذا. فإنا نعرف ودك ، وما أنت عندنا بمتهم. فقل ما عندك ، فقد داخل صدري من قلق ما داخله.

هنا شعر نعيم بأن الخيط النفسي قد أمسك بطرفه. رفع رأسه ، وأطلق كلماته ببطء مدروس:

كيف غاب عن فطنتكم ، معشر قريظة ، أن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم ؟ البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا عنه. أما هم ، فأموالهم ونساؤهم في غيره. إن رأوا فرصة أو غنيمة أصابوها ، وإن لم يروا رجعوا إلى ديارهم ، وخلّوا بينكم وبين محمد. أفلكم طاقة بمحمد وأصحابه إذا هزم هؤلاء وانشمروا عنكم ؟

سكت كعب ، وتعلقت عيناه في الفراغ. كانت كلمات نعيم كالسهم الذي أصاب قلبه. تراجع الغرور ، وحلّ محله خوف عتيق ، خوف اليهود من الغدر ، من الوحدة ، من المصير المحتوم.

قال بصوت متردد :

لا والله... ولكنني واعدت أبا سفيان وعيينة.

اقترب نعيم خطوة، وهمس :

فاحتال لنفسك .

ارتبك كعب :

كيف أصنع ؟

قال نعيم بنبرة الواثق :

أنتم أهل حيلة. اطلبوا منهم رهائن من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ضمانًا. فإن وفوا قاتلتم معهم ، وإن غدروا قتلتم الرهائن ، فيكون ذلك شفيعكم عند محمد.

ساد صمت طويل . كان كعب يفكر ، يقلب الفكرة على وجوهها ، حتى استقر رأيه.

قال أخيرًا :

وحق يهود، لا طالبنهم بهذا.

خرج نعيم من الحصن ، وقلبه يخفق ، لكنه مطمئن إلى أن أول خيوط الخديعة قد نُسجت بإحكام.

+

شق نعيم طريقه عبر الليل البارد ، حتى بلغ معسكر الأحزاب ، حيث كانت النيران تتلألأ ، والأصوات تختلط بين ضجيج الجنود وصليل السلاح. دخل على أبي سفيان ، فوجده في مجلس تحيط به وجوه قريش وغطفان.

قال أبو سفيان في دهشة :

نعيم بن مسعود ! سيد غطفان ؟ ما جاء بك إلينا ؟ كيف تركك أصحاب محمد تعبر إلينا ؟

قال نعيم بصوت خافت :

ما جئت إلا من حصون بني قريظة ، ولو علموا بقدومي لقتلوني.

حدق أبو سفيان في وجهه مليًا :

ما جئتنا على هذه الهيئة إلا لأمر .

تنهد نعيم و قال :

أجل، ورب الكعبة. قد بلغني أمر رأيت حقًا عليّ أن أبلغكم إياه نصحًا.

قال عكرمة بن أبي جهل :

كأن الأمر خطير ؟

أجاب

:بل جد خطير. أدركت من تهامسهم أنهم ندموا على نقض العهد مع محمد ، وأرسلوا إليه يقولون : إنا ندمنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رهائن من أشرافهم ، فنعطيك إياهم ، تضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي ؟

غضب أبو سفيان ، واشتعل وجهه :

كنت أعلم أنهم سيغدرون ! أوَ قَبِل محمد ؟

قال نعيم :

نعم. ولن يلبثوا أن يطلبوا منكم رهائن .

قال أبو سفيان غاضبًا :

و اللات و العزى ، لا نعطيهم رجلًا واحدًا !

وقال عكرمة :

دعني أذهب إليهم الساعة ، لأعلم حقيقة ما يدبرون.

ابتسم نعيم في سره . لقد بدأت الدائرة تضيق ، وكل فريق بات يشك في الآخر ، كما أراد تمامًا.

+

خرج نعيم من مجلسهم، والليل يلفه بردائه الأسود . وقف وحده ، وألقى ببصره إلى السماء . كان قلبه يرتجف بين الخوف والرجاء . قال في نفسه :

يا رب ، إنما فعلت هذا نصرة لدينك ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين. ما أضعف الإنسان حين يقف بين الموت والحياة ، بين الصدق والكتمان ، بين الوفاء لقومه والوفاء لعقيدته .

كانت ذكرياته تتدافع في رأسه : طفولته بين غطفان ، مجالس الفروسية ، صولات الحروب ، ثم لحظة إسلامه السرية ، حين انفتح قلبه على نور جديد. لقد صار إنسانًا آخر ، لكنه ما زال يحمل جلد القديم.

كان يشعر بثقل الدور الذي يؤديه. فهو الآن خيط رفيع يفصل بين كارثة كبرى ونصر عظيم . أي زلة لسان قد تودي به وتفسد الخطة كلها . ومع ذلك ، كان في أعماقه سكون غامض ، سكون من يوقن أن الله يدبر الأمر من وراء ستار.

+

لم تمضِ أيام حتى بدأت الشكوك تفتك بمعسكر الأحزاب . جاء رسول بني قريظة يطلب الرهائن ، فازداد غضب أبي سفيان ، ورفض الطلب ، متهمًا اليهود بالغدر. وفي المقابل ، علم كعب بن أسد برفضهم ، فقال في نفسه : صدق نعيم! ها هم ينوون الانسحاب وتركنا وحدنا.

تصدعت الثقة ، وتفككت الصفوف، وصار كل فريق يتربص بالآخر. ومع اشتداد الريح ، وقسوة البرد ، ونقص المؤن ، دبّ الوهن في القلوب. وفي ليلة عاصفة ، أمر أبو سفيان بالانسحاب.

انسحبوا كمن يفرّ من قدره ، وتركوا خلفهم حلم النصر يتلاشى في ظلمة الصحراء.

هكذا ، لم تُحسم معركة الخندق بالسيوف وحدها ، بل بالعقول الراجحة ، والنفوس الثابتة ، والدهاء الذي لا ينفصل عن الإيمان. كان نعيم بن مسعود رجل الساعة ، الذي أدرك أن الحرب ليست فقط صدام أبدان ، بل صراع إرادات ، وتفكيك ثقة ، وزرع شك ، وبناء أمل.

لقد كتب التاريخ اسمه في سجل الخالدين ، لا كفاتح بالسيف ، بل كمخطط عبقري غيّر مجرى الأحداث بكلمات قليلة ، وخطوات محسوبة.

وفي أعماقه ، ظل يردد :

اللهم إنك تعلم أنني ما أردت إلا نصرة دينك، فاقبلني في عبادك الصالحين .

وهكذا ، انقشع ليل الأحزاب ، وأشرق فجر جديد على يثرب ، معلنًا أن الإيمان إذا تساند مع الحكمة ، صنع المعجزات ، وأن الإنسان ، حين يتجاوز ذاته ، يصبح أكبر من الخوف ، وأقوى من الموت.

على تخوم العاصفة

حيلة العقل ومغامرة الروح في سيرة نعيم بن مسعود

كان الليل ينسدل على المدينة المنوّرة كعباءةٍ من رهبةٍ وسكينة ، والريح تعوي في الفضاء كأنها تنذر بانقلاب المقادير . السماء مكفهرة ، والنجوم شاحبة ، والقلوب مشدودة إلى خيطٍ رفيع بين الرجاء والخوف . هناك، عند تخوم الخندق ، حيث اصطفت جموع الأحزاب في زهوٍ متعجرف ، ووقف المسلمون في صبرٍ جسور ، بدأت حكاية الخديعة الكبرى ، التي لم تُسفك فيها دماء بقدر ما سال فيها الذكاء ، ولم تُرفع فيها السيوف بقدر ما استُلَّ فيها العقل.

كان عكرمة بن أبي جهل يمتطي فرسه في عجلةٍ ولهفة ، وقد اشتعلت في صدره نار الغضب والحنق. اتجه صوب حصون بني قريظة ، حيث يقيم كعب بن أسد سيدهم وحارس عهدهم . كانت الرياح تعصف بثيابه ، وتدفعه إلى الأمام كما لو أن القدر ذاته يسوقه إلى مصيرٍ محتوم . في داخله دوامة من الأسئلة ، وصراع بين ما يتمنى وما يخشى. أحقًّا سيقفون معنا في الهجوم الكاسح ؟ أم أن في الصدور ما يخفيه الصمت ؟

وقف أمام كعب ، فتبادل الرجلان نظراتٍ مشوبة بالحذر. لم يكن الحوار بينهما مجرد كلمات ، بل كان مبارزة خفية بين عقلين ، كلٌّ منهما يحاول أن ينتزع من الآخر ورقة الطمأنينة.

قال عكرمة ، وهو يحاول أن يبدو ثابتًا :

لقد آن أوان الهجوم ، فالأحزاب قد اكتملت ، والقوة اجتمعت ، وما بقي إلا أن نكسر هذا الخندق ونقتحم المدينة.

ابتسم كعب بن أسد ابتسامةً باردة ، فيها من الخبث أكثر مما فيها من الود ، وقال ببطءٍ متعمّد :

لسنا غافلين عمّا تقول يا ابن أبي جهل ، ولكن للحرب أثمان ، وللتحالف شروط. إن كنتم تريدون قتالًا لا رجعة فيه ، فهاتوا إلينا رهائن من أشرافكم ، يكونون في أيدينا ضمانًا ووفاءً ، وإلا فلن نقاتل معكم.

تجمّدت الكلمات في حلق عكرمة ، وشعر كأن سكينًا خفية قد غرست في صدره. أدرك ، في تلك اللحظة ، أن الخديعة التي دبّرها نعيم بن مسعود بدأت تؤتي ثمارها. تذكّر تحذير نعيم ، وكأن صوته ينبعث من أعماق الريح : احذروا بني قريظة ، فإنهم لا يأمنون عاقبة الحرب ، وسيطلبون منكم رهائن.

عاد عكرمة مسرعًا إلى أبي سفيان ، والقلب يخفق كطائرٍ مذعور. كان معسكر الأحزاب مضطربًا ، والأصوات متداخلة ، والوجوه متجهمة. وما إن وصل حتى صاح :

غدر بنا أولاد الثعالب ! قال لي كعب في خبث : إمّا أن تعطونا رهائن من أشرافكم ، وإلا فلن يقاتلوا معنا !

ساد الصمت برهة ، ثم انفجر أبو سفيان غاضبًا ، وقد احمرّ وجهه واشتعلت عيناه :

هذا ما حذّرنا منه نعيم ! لا والله، لا ندفع إليهم أحدًا. أيريدون أن يسلموا أبناءنا لمحمد ؟!

ومن تلك اللحظة ، بدأت الفرقة تتسلل بين صفوف المشركين كدخانٍ خبيث. كل قبيلة تشك في الأخرى ، وكل قائد يرتاب في نيات من حوله. انكسرت الثقة ، وتصدّعت وحدة الصف ، وصار الجمع الغفير شتاتًا قبل أن يكون جسدًا واحدًا . أما بنو قريظة ، فقد لزموا حصونهم ، يتلفتون في خوفٍ وترقّب ، وقد رأوا الأحزاب تتفكك ، والريح تكفأ قدورهم ، وتقتلع أوتاد خيامهم ، ولا يثبت لهم بناء في تلك العاصفة التي أرسلها الله عليهم.

كانت الريح عاتية ، تعصف بما حولها كأنها يد القدر الغاضبة ، ترفع الرمال وتلقي بها في العيون ، و تطفئ النيران، وتزعزع القلوب . في تلك الليلة ، شعر المشركون بأن الأرض تضيق بهم ، وأن السماء تنقلب عليهم. لم يعد في البقاء إلا مزيد من الهوان ، ولا في الصمود إلا زيادة من الخسارة . فغادرت قريش معسكرها ، تجر أذيال الخيبة ، وعادت إلى مكة ، منكسة الرؤوس ، مثقلة الأرواح. وتبعتها قبائل غطفان وسليم ومزينة ، كلٌّ يعود إلى أرضه ، وقد انحنى ظهره تحت وطأة الفشل المرير.

وفي قلب المدينة ، كان نعيم بن مسعود يقف في صمتٍ متأمل ، يراقب من بعيد انسحاب الأحزاب ، ويستعيد في داخله خيوط الحيلة التي نسجها بدقةٍ وصبر. لم يكن نعيم رجل سيف ، بل رجل عقل . لم يفتك بخصومه بحدّ السنان ، بل بحدّ الفكر . كان يعرف دهاليز النفوس ، ومداخل الخوف ، ومخارج الطمع ، فاستغلها كما يستغل النسّاج خيوط الحرير ليصنع منها ثوبًا بديعًا.

وفي أعماقه ، كان يشعر بامتزاج غريب بين الزهو والتواضع. يعلم أن ما فعله لم يكن إلا توفيقًا من الله ، وأنه مجرد أداة في يد القدر. كان يهمس لنفسه : *كم من حربٍ حُسمت بكلمة ، وكم من سيفٍ انكسر أمام فكرة*.

مرت الأيام ، وتعاقبت الوقائع ، وبقي نعيم في صحبة رسول الله ﷺ ، يشهد المشاهد كلها ، ويتتلمذ على مدرسة النبوة في الصبر والحكمة. حتى إذا جاءت وقعة حنين ، وجد نفسه في قلب المعركة من جديد ، غير أن الميدان هذه المرة كان أكثر ضراوة، والخصم أشد بأسًا.

يروي نعيم ، وعيناه تلمعان بدمعٍ مكبوت :

في حنين ، يا سيدي ، كنت وزوجي أم سلمة في الجيش الذي حارب المشركين في أوطاس ، ولقيت أم سلمة ربها على أثر جرحٍ غائر في صدرها.

كانت الكلمات تخرج من فمه مثقلة بالحزن ، كأن كل حرفٍ يحمل جزءًا من روحه. رأى في مخيلته وجه زوجته ، وهي تبتسم ابتسامة الوداع ، وتسلّم روحها مطمئنة ، كأنها تعلم أن الموت في سبيل الله حياة لا فناء. في تلك اللحظة ، أدرك نعيم أن البطولة ليست في الانتصار وحده ، بل في القدرة على الفقد دون أن ينكسر القلب.

ومضت السنون ، وتبدّلت الوجوه، وجاء زمن الفتوحات الكبرى . وقف نعيم على شاطئ البحر ، يحدّق في الأفق اللامتناهي ، حيث تمتد المياه كمرآةٍ زرقاء تعكس طموح الأمة الناشئة. كنا نقول له :

كنت يا سيدنا نعيم في جيش المسلمين الذاهب على سفن الأسطول الإسلامي لغزو قبرص أيام الخليفة عثمان بن عفان؟

فيجيب ، وقد ارتسمت على وجهه مسحة من الذكريات البعيدة :

أجل، فقد كان الروم قد عزموا على مهاجمة الشام عن طريق البحر ، فأراد الخليفة أن يسبقهم إليها.

كان البحر آنذاك عالمًا مجهولًا ، تخشاه النفوس وتهابه القلوب . ركوب السفن مغامرة ، والإبحار نحو المجهول مقامرة ، ولكن الإيمان كان شراعهم ، والعزيمة دفتهم.

يروي التاريخ أن نعيم كان من أوائل من وطئت أقدامهم أرض قبرص ، وأنه هو الذي فتح باب مدينة لارناكا لرجال عبد الله بن السرح ، قائد القوة الإسلامية.

وحين نذكر ذلك أمامه ، يبتسم ابتسامة العارف بأسرار القدر ، و يقول :

أجل يا ولدي ، وتلك مغامرة يطول الحديث عنها ، وعن ملابساتها المثيرة.

ثم يسكت قليلًا ، كأنما يستدعي الصور من عمق الذاكرة. يرى السفن تتلاطم بها الأمواج ، والجنود يتشبثون بالحبال ، والسماء تعبس ، والريح تعصف. يرى نفسه وهو يقترب من أسوار المدينة ، يتسلل في جنح الليل ، يتلمّس طريقه بين الظلال ، حتى يبلغ الباب العظيم.

هناك ، في تلك اللحظة الفاصلة ، لم يكن معه إلا قلبه وإيمانه. فتح الباب ، فانفتحت معه صفحة جديدة في تاريخ الفتح.

ولم يكن ذلك الفتح مجرد انتصار عسكري ، بل كان انتصارًا للروح على الخوف ، وللأمل على اليأس. ومنذ ذلك الحين ، صار قبر نعيم في لارناكا يُعرف باسم قبر الرجل الصالح، وبقربه مثوى زوجته القبرصية، المعروف حتى اليوم باسم قبر المرأة الصالحة . كأنما شاء الله أن يجمع بينهما في الحياة والجوار في الممات ، ليبقيا شاهدين على رحلة طويلة من التضحية واليقين.

وهكذا تمتد سيرة نعيم بن مسعود ، من خندق المدينة إلى شواطئ قبرص ، من حيلةٍ أنقذت أمة إلى مغامرةٍ فتحت آفاقًا . سيرة رجلٍ أدرك أن التاريخ لا يُصنع بالسيوف وحدها ، بل تصنعه العقول التي تحسن قراءة اللحظة ، والقلوب التي تثق بوعد الله.